مواسم الشهد

الكاتبة : حنان الشيمي
التدقيق اللغوي : شيماء رميح
المراجعة اللغوية النهائية : هند محمود
الإخراج الفني : هند محمود
مصمم الغلاف : محمد مجاهد
رقم الإيداع : 2020/17768
الترقيم الدولي : 978-977-6689-51-0

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين

بجوار مدارس حسام الدين الخاصة، فيصل، الجيزة

01061813345 - 01126026691 - 01009823984

مواسم الشهد

رواية

حنان الشيمي

«الحربُ ليست فقط هي ما يحرق حاضرنا، ولكن أيضًا ما يستمر فينا من رماد حتى بعد خمود حرائق الموت.
لكل فراشة احترقت أجنحتها الهشة، وهي تحاول أن تحفظ ألوانها، وتبحث عن النور في ظل ظلمة، كل يوم تتسع قليلاً».

واسيني الأعرج

إهداء

إلى من سيجدون أنَّاتهم التائهة بين سطور هذه الحكاية.

زخاتٌ متعاقبات أهدتْ الأرضَ ماءً ثجاجًا، فأغرقت كل شيء، ابتل معطفه الذي تصارعه الرّيح، كي يتحرك بعيدًا عن جسمه النَّحيل. أما رداء الأرض الأخضر، فقد تزين بحبات المطر الذي بدأ يخفت رويدًا رويدًا، ومعه وجع يتذبذب في صدره فأطلق حواسه وترك جوارحه، عله يهدأ ويستكين.

الأيام التي تساقطت كأوراق الشجر لم تُهدِه جوابًا عن أسئلة كثيرة تعربد في رأسه؛ الدنيا لا تهب إلا المشقة والحياة أقصر من أن تعطينا كل ما نتمنى.

الريح التي تهدر بصفير حاد تعصف بأوراق الشجر لتصفع النوافذ والأبواب، وتتراقص الملابس فوق أحبال المناشر، وقت المطر نغلق الأبواب، نحتمي بالبيوت والجدران، يسارع الأهل بسدِّ الفُرَج والنوافذ، نستدعي الدفء بحساء أو مشروب ساخن، برد الشتاء كالإبر ينفذ إلى العظم مباشرة.

وحدها أمه كانت تقف في شرفتها تراقب حبات المطر وتدعو بحبور: "اللهم صيباً نافعًا، اللهم بارك في أولادي واحفظهم وارزقني بِرَّهم، اللهم استرنا ولا تفضحنا وأكرمنا ولا تهنا".

كان لسانها يلهج بدعوات متتاليات للجميع، تدعو لهم فردًا فردًا.

لا ينسى أبدًا رائحة طبخها الشهي ومخبوزاتها الطيبة التي كانت تعجنها بملح الصبر وتخمرها بكأس اليقين وتخبزها في بوتقة الرضا.

المدينة غارقة في الظلام، نظر حوله فاسترعى انتباهه قطة تموء جوعًا وبردًا.

بعيدًا، كان هناك رجل يرتدي جلبابًا من الصوف الأزرق يضم أبواب دكانه ثم يثبتها بعارضة حديدية وقفل ضخم- فرك يديه ليحصل على بعض الدفء المنشود وهو ينظر إليها، ثم وَلَّاها ظهره وهو يحكم كوفيته حول رقبته.

ثوانٍ معدودات وخلا الطريق من المارة تمامًا.

الحنين الذي ارتعش فوق صدر السماء ليضوي البرق ويدوي صوت يتردد مرارًا كأنه قادم من بعيد.

من وراء تلك الغيوم يصاحبه طوال رحلته، وقعه يريح النفس ويسكن الفؤاد، وكلما تسارعت الذكريات يصدر الصوت أنينًا بهذه الكلمات القليلات:

"ترفَّع يا ولدي عن النزالات الصغيرة، فالملاحم الكبرى لا يصنعها سوى الأبطال".

من الحكايا ما وددنا لو كتبناه بالإبر على مآقي البصر ونحتنا له الحفر، وأبلغناه لسائر البشر، لِنُنير البصيرة قبل البصر، ربما يكون عِبرة لمن اعتبر.

على صدر السماء، الشمس تلقي بآخر أشعتها، لتصيبها بسهم من وهج.

سار كأنه بطل مغوار، أو محارب عاد من معركته للتو منتصرًا، لكنه كان في الحقيقة خالي الوفاض.

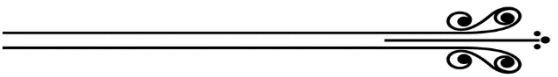

ساقته الأقدار إلى عالمِها، كل خطوة يخطوها خطر يُحدِق به، غلالات حيرة تلبَّسته وفراغ يحيط به، ليلتقط بعض الخيالات.

تتعاظم دقات قلبه وهو يُحدِق النظر إلى الزوايا كلها، تأرجَح قلبه مرارًا بين ضلوعه كبندولٍ حائر، تتَّقِد عيناه بشرارات رعبٍ ويدفعه الفضول إلى التقدم نحو المجهول.

كانت نورًا، أضاءت فضاءه العظيم، سدَّت ثَقب قلبه وأنارت ظلماته الثلاثة: الخوف، التردد والأنانية.

أحيانًا تكون معه وأحيانًا تتركه يواجه الأمر وحده، وهو يتخبَّط، يبحث عنها، ليكتشف في النهاية أنه كان يبحث عن نفسِه فيها، نفسه التي فقدها في عالمه، ولم يستطع استعادتها، لتظهر هي من عالمها فتصاحبه إلى حيث يكشف الأسرار التي تشبه أسراره إلى حدٍّ كبير، لينتهي إلى حقيقة خالدة:

"النهاية قد تكون بداية حياة جديدة".

(١)

البداية

شفتان متورمتان، جبهة تتفصَّد عرقًا، الاحمرار يزداد في بقعةٍ ما من جسمه، تتبادل الوجوه حوله النظرات وترتدُّ سريعًا، فتلك الفوضى التي اجتاحته وبعثرت كيانه بدأت ولن تنتهي، وذاك القلب الذي يحمله بين جنبَيه دخل إلى حلبة السباق ولن يتوقف، فالحياة نفَسٌ كبير لا سبيل إلى تفاديه.

نقترب حينًا فنعود بالخذلان، نبتعد حينًا فتصفعنا الذكريات، نتقلَّب بين هذا وذاك فتهزمنا الصدمات حتى نعي أنَّ القرب من بعضهم إهدارٌ للعمر، والتورط في العلاقات الباردة موتٌ للشغف، ووَأْد الحنين يجعلنا ننطوي، ننزوي ونبتعد.

في غرفة الطوارئ حيث كانت مُستقراً ومُقامًا، جفَّ حلقه، وشعر بدوار وغثيان، حاول أن ينهض فعجز وتهاوى من الإعياء، أما جسمه فقد كان يرتعش بصورة هيستيرية، شيء ما يجثُم على صدره فلا يستطيع التنفس، وعظام جسمه تئِنُّ بضراوة، حاول أن يصرخ فتوقفت الكلمات في فمه، وعندما نظر إلى الجزء الزجاجي رأى وجوهًا تطالعه بلهفةٍ وجزع لكنه لم يتعرف على أيٍّ منها.

وجه نحيل ارتسم على ملامحه بعض القلق وإن ادعى الثبات، هرول وراء الطبيب يسأله:

- كيف حاله؟

أعاد الطبيب عُوَيناته الزجاجية إلى موضعِها ومنح نفسَه فرصة استنشاق بعض الهواء قبل أن يجيب:

- التهاب حاد أدى إلى حمى.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

تمتم مستطردًا:

- هل حالته خطيرة؟

- الحرارة تُقلِقُني لأنها لا تستجيب إلى المخفِّضات، وأعتقد أن الحُمَّى تستشري في جسمه، وربما يدخل في غيبوبة.

أُسقِط في يده، فلم يمتلك ردًّا سوى دعاءٍ بصوت خفيض حتى لا يثير اضطراب أهله الذين قتلهم الخوف عليه.

توجه "عمرو" نحو والد "راغب" وشقيقتيه، كل واحد منهم كان يسند قلقه وضعفه إلى قلق الآخر وضعفه. ومعهم تلك الأمنيات المعلقة في المصابيح والأحلام المؤجلة على فراش المرض، لتمضي الساعات تلو الساعات، ظلوا يبثونها السكات، داعين المولى أن يلهمهم الثبات.

جلس "أبو راغب" يتلبسه الصمت بين ابنتيه محتضنًا إياهما، سألته "سلوى":

- ماذا يقول الطبيب؟

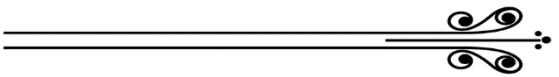

- هو بخير لا تقلقا.

هزت "جنى" رأسها في حين اشتعلت عيناها بدموع خفية مزقت قلب "عمرو" فتصاعد نشيج الجميع.

***

حين فقد سكِينتَه وسكونَه وسقطت أسوارُه وحصونُه، ضلَّت الخُطا طريق الصواب، وتعثَّر المسير حيث هدفه ومبتغاه، تاهَ عن مرساه، ظَلَّ يبحث عن هويَّته، تاريخه وجغرافيته، فهل يعثر على خارطته؟

ربما كانت تلك أضغاث أحلام! ربما كان هذيانًا مصاحبًا للحُمَّى التي اجتاحته إثر لَسْع النحل إياه! ربما رحل وهو الآن ينتظر مصيرَه! في زوايا الحياة التي لا تهدأ ولا تَرضى سِوى الغرق فيها، الشَّدْوِ على أنغامِها المُفْعمة بالصخب، لتستقبل الأحبَّة في قصائد منظومة، وتتذوق جرعات الحب المتْرفة عبر خيالاتٍ تدفع زمن الوحشة والضجر. فأنَّى تَخمد نيران قلبه الملتهبة؟! ومَن يبثُّه الأُنس والهدوء في خِضَم معاناته المتوقدة؟! مَن يدلُّه كيف يعود إلى نفسه؟!

على بُعد خطوات، وقف الطبيب يتحدث إلى والده الذي بادر يسأله:

- أرجوك طمئنِّي عليه يا دكتور.

- الحرارة ترتفع باستمرار، والحُمَّى تتصاعد وقد دخل في غيبوبة.

حَوْقل الأب، استرجع ثم رفع يديه إلى السماء داعيًا الله أن يمنَّ على ولده بالشفاء.

بينما هو مُمَدَّد هناك، وقد تصلَّب جسمه وتجمَّدت الدماء في عروقه، دوارٌ شديد أصابه وبدأت أنفاسه تتلاشى، انهارت مقاومته تمامًا، وفجأة ضاع من عينيه ضَوء النهار،

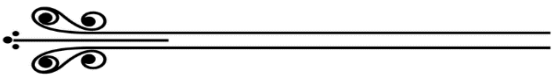

ليَسقط في جُبٍّ عميق، وقبل أن يغيب عن الوعي كان يردِّد آيات وأدعية الكرب كما علَّمته أمه من قبل.

بدا مُستسلمًا لها، هالةٌ من النور حولها، يُضيء وجهها كبدر التمام، لا تشبه أحدًا، لا في مظهرها ولا في حركتها.

بدأ النور يلف المكان كأنما غاب كل شيءٍ عداه ثم غاب الجميع، واحدة فقط سحبته من يده وأَوْلجَته هناك، تزاحمت الأنفاس في صدره، تقدَّمت خطوة إلى الأمام ثم تراجعت قدمها إلى الوراء مضطربة وجلة. اقترب الجسم من الجسم حتى كاد الجسمان يلتصقان ليطيرا في الهواء، شعر كأنه يسبح في الفضاء، كان الجو باردًا والليلة مُقمِرة، السماء تمتلئ بالسُّحب المتناثرة هنا وهناك، وخَزَ البرد وجهه، نبَتَت على شفتَيْه ابتسامة رضا واستشعر بعض الدهشة، لكنَّ روعة المكان وأَدَتْها قبل أن تغادر خاطرَه.

الهدوء يُضفي مسحةً ملائكيةً على المكان، كأنما غادر عالمًا وولج عالمًا مغايرًا، وظلَّا يسبحان في الهواء حتى الصباح.

تماهى معها في الزمان والمكان حتى نسيه الوقت ليغرق في ذاك الوسن.

المملكة

شعر بخفة في جسمه كأنما نبَت له جناحان يُحلِّق بهما بعيدًا، كأنما هو آدم حين دخل الجنة، وأنه يتنفَّسها وتملأ رئتيه قبل أن تحتل قلبه، يتنسَّمها رحيقًا لا شهيقًا، عبيرًا لا زفيرًا. كانت هي صاحبة الديار، وهو ضيفها وساكنها، مُثقلٌ هو بالخيبات وفوق جبهتها رأى انتصاراته، كانت تشعر بما يُخفيه وما يخافه، تسمع في صمته ما يُغني عن الكلام فهي ليست بحاجة إلى كلام، وكانت تقرأ في عينيه القصة كاملة وعلى جفنه كلمة الخاتمة.

رأى نهرًا بلون العسل يتدفَّق ماؤه عذبًا، رمال ناعمة كأنها صفحة سماء رائقة، وخيوط الشمس الذهبية تتدافع نحو الأرض تنثر الضياء والدفء، بساتين وحقول غنَّاء على جانِبَي الطريق، الورود تتمايل والزهور تتراقص بغنجٍ ودلالٍ على نغمات الرياح، فيما أريجها يعبق الجوَّ سحرًا وجمالًا وعطرًا فوَّاحًا، وبعض الندى ينثُر عبقه رذاذًا لطيفًا على وجنتَيْه.

- ما أروع الطبيعة هنا! كأني أرى كل شيء لأول مرة.

كان الطريق أمامهما ساحرًا على جانبَيْه مُروج خضراء يانعة تزدهي تحت أشعة الشمس التي تصافح الأرض بود.

تذكر أنه لا يعرف اسمها فاستدار لمواجهتها سائلًا:

- من أنتِ؟ وأين نحن؟ وكيف يُضيء الكون من غُرَّتك ويشرق من نورك؟

ابتسمت وضنَّت بتوضيحٍ أَسرَّته في نفسها مراوغة إياه:

- لا يهم، المهم أننا هنا بعيدًا عن ضجيج البشر، فلا يحزنك شيء وأنت معي وليغْشَ الكون ما يغشى.

ابتسمت وهي تباعد الخُطا عنه، فهرول يلاحقها مدفوعًا هو بقوةٍ خفيةٍ للسَّيْر وراءها، كانت تتسلل إلى رئتيه كالنسيم تُلطِّف جوفه المتقد كربيع يحمل البهجة والفرحة بعد خريفٍ طويل.

هَمَّ أن يسألها مرةً أخرى، ويستنطقها لإجابة أسئلته التي لا نهاية لها، فاختفت كل الأصوات حوله، وتبَقَّى صوتها وحده يداعب أذنه ويُدغدغ فؤاده. سحرته بعينيها العسليتين فلم يعد يرى شيئًا غيرها، ألحانُها كانت قصائد عينيه، ودندناتها كانت نبضات فؤاده، كانت كالنور الذي أضاء ظُلمة لَيلِه فسقط في ظلِّه وذاب في حضنه، ليبعث فيه الدفء والراحة.

حوله المكان رائعٌ خلاب، قرص الشمس الدامي الذي بدأ يبتلعه الأفق رويدًا رويدًا، ليتناغم ثوب السماء الأزرق مع لون البحر السماوي الرائع في لوحة فنية بديعة، الأشجار مصفوفة، حقول وبساتين، ورود وأزهار، كثير وكثير.

أُلقِي في رَوْعه طمأنينة شابها شعور خفي بأنه لا ينتمي إلى هذا المكان، أفسد اللحظة بتلك الهواجس وتساؤلات اقتحمت تفكيره تدفعه إلى المعرفة، كيف استحالت ذاكرته إلى ورقة بيضاء لا يكاد يذكر شيئًا؟! كيف انشقَّت الأرض عنها؟!

اضطرب كل شيء حوله واختلطت الأمور عليه، خيالاتٌ وهواجس عَلَقتْ في مُخيّلته عن الماضي، فرضخ تحت وطْأتها مُعلَّقًا كورقة شجر جافة في مَهبِّ الريح، وهنا تشتَّتَت العقول وتفطَّرت القلوب، فأصبح الكلام هذيًا، والفكر نسيًا، والنظر آسيًا.

لكن السهام التي أطلقتها من عينيها تلاقت مع نظراته الحائرة، لتتعانقا وتتآلفا في المنتصف تمامًا كما في القلب، ليمتزجا فيه، لتقف تلك الخفقة بينهما شاهدةً على مشاعر تتأجَّج، وحب يولد ويتوهَّج.

ابتسمت فأشرقت الدنيا، ليزداد ذهولًا ويستسلم تمامًا، راح يجول ببصره في المكان الفسيح كأنما قُدَّ من جنة رضوان.

هم من بحثنا عنهم في موضع فَفرَّقتنا المواضيع، من أرادوا أن يؤنِسوا وحشتهم فتوحَّشوا الأنس، سَعوا إلى البراح ولم يملكوا البوح، فرَّقهم الناس وجمعهم الله من فوق سبع سماوات، تعثَّرت أقدامهم فتلاقت قلوبهم وضمَّتهم دائرة واحدة. وإن كان التِّيه، وإن حاربوا الضياع، وإن سكنوا الوحدة.

وفي النهاية رسموا على شجرة قلبين متعانقين، كأنما يُحيون أملًا أراد الخفوت بعبارة واحدة: "عساه قريبًا".

رحل النهار إلا قليلًا منه، تطلَّع إلى المكان يستشفُّ هويَّته ففشل في معرفة أي شيء، أو التعرف على أي أحد، استبدَّت به الحيرة وأهمَّه التفكير، جناحاه خارا من التحليق في السماء، قدماه ذابتا في البحث عن إجابة لسؤاله، وابيضَّت عيناه من التحديق في الأشياء، لكنه ما زال يرقب طلَّتها البهية ويتزَوَّد من حضورها البديع ويراقب قدومها الرائع، فلا انشغال للطرف عن وجه الحبيب، وهو كان دائم النظر إليها.

طالعها باهتمام وتعجب حين همست إليه:

- بدأت مراسم "الكرنفال".

مراسم الكرنفال

هكذا سمع منها وتابعها بشغف وهي تقترب منه وتشير إلى مجموعات متلاحقة من الحوريات برزت أمامهما، تلتها النساء ثم صفوف كثيرة من الرجال في احتفالية كبيرة. التفت يطالع السماء فوجدها صافية شامخة فوق أشجار عملاقة كأنها مُعمِّرة منذ آلاف السنين، بناء ضخم يختلط فيه اللون الأبيض باللون الذهبي في روعة وجمال، بهو متسع، عيناه تبحثان عنها، وحين تلاقت الأعين شعر بوخزٍ في قلبه، شيءٍ ما ينبت في فؤاده، وثمة وهج يزداد وشغف يتزايد.

دقت الطبول وأعلنت الأبواق الافتتاح وبدأ المهرجان، رقصات أدَّتها الفتيات برشاقة وخفة، يتزايد إيقاع الرقصات، ليُلهِب حماس الجموع فيزداد التصفيق وتعلو الصيحات، في حين أن الملكة تراقب ما يجري في صولجانها في تلك القاعة الفخمة التي يتصدَّرها عرشٌ عظيم.

الرؤوس فوق الرقاب مشدوهة مشدودة بحبال خفية وقد غلب الجميع الفضول المصاحب للدهشة والانبهار، لكن شيئًا ما بعث الطمأنينة في قلبه واستمال الهدوء إلى نفسه.

دنت منه محدثته هامسة:

- الملكة "فيرومونا".

وأشارت باتجاه الملكة التي كانت تزدان في ثوب مُزركشٍ بلون العسل تعلوه غلالة واسعة ألوانها مبهجة، يغلُب عليه اللون البرتقالي، أكثر نعومة وأشد لمعانًا من الجميع. تُعمِل نظرها فيما حولها بإباءٍ وشموخ، والبهجة ترتسم على وجوه الجميع بِشرًا وسرورًا، انحنت الرؤوس والهيبة تكتنف عرش الملكة، الاحترام والإجلال سادا الأجواء، وهنا خشعت الأبصار.

الكل يشاهد بشغف بداية الاحتفال، انتهت الفتيات من الرقص وبدأ الهتاف لفخر المملكة: "عاشت الملكة فيرومونا"، وكرر الجميع: "عاشت الملكة فيرومونا" [1].

تقدم صفَّان من الرجال العمالقة الأقوياء البنية الضخام الأجسام في موكبٍ مهيبٍ يحمل عرش الملكة، يتقدمون من منتصف الحلقة بخشوع ففُتِنَت الأعين بجمال صاحبة الجلالة.

كان الجميع طيّعًا لرغبات الملكة التي أبدت آيات الشكر والامتنان لشعبها الكبير، اتجهت الأنظار إلى ملكتهم، بعضها مبهورٌ وبعضها مفتخرٌ وأغلبها محبٌّ ممتنٌّ، وضجَّت الساحة ابتهاجًا وتجاذب الجميع أطراف الحديث.

الحياة التي ظنَّ أنها خذلته ذات مرة ربما هو الذي لم يتمسك بها جيدًا، ربما هو من رغب في عدم اللحاق برَكبِها، ربما هو من فقد الشغف بها. الحياة لا تخذلنا، نحن مَن نفعل.

الحياة لا تفوتنا لكنها تدهسنا حين نتكالب عليها ونظن أنها الغاية الكبرى، ثم ندرك في النهاية أنها كانت مجرد رحلة قصيرة في أسفار طويلة.

خلف قوافل السحب التي تزدحم بها السماء، والبرد الذي يكاد يجمد كل شيء، كان يرى كل شيء باللون الأبيض، الجدران كأنها صنعت من الشمع

---

(١) فيرومون: هرمون تفرزه ملكات النحل، ينتج رائحة مميزة لكل خلية.

الأبيض، هناك بهو للاستقبال كل ما فيه نقي نظيف معطر، الثريات تتلألأ، الأرض مفروشة ببساط لونه كلون العسل المصفى.

عَبَر ردهة طويلة، أرضيتها مكسوة بالرخام الأبيض المصقول وسقفها شديد الارتفاع، الأعمدة متراصة على الجانبين، كل شيء ناصع البياض. المكان كان باردًا، والنسمات تعانق الوجوه بلطف حميم، الهواء يعبق برائحة منعشة، راح بصره يتنقل فيما وجهه مشوش يتنازعه الذهول والدهشة.

شعر بخفة كأنه في سماء صافية، كأنه يطير، نظرت إليه صاحبته ثم راح نظره يطوف فوق ملامحها كأنه يقرأ كتابًا ويريد الحصول على المعرفة.

شعر بنسمة ناعمة تلفح وجهه عندما تطايرت أطراف وشاحها، أحس بيد تتلقفه، إنها يدها، أطال النظر إلى وجهها فاختفت عنه حدود الزمان والمكان.

نسمات الهواء تخترق جناحيه ليحلق في الأعالي، يحملانه تارة فوق الأزهار وتارة وسط الأشجار، كان يوقن أن تلك الأشجار لها أرواح حية فهي ترى وتسمع وربما تتكلم. في المساءات الدافئة كان يمسك أوراقها اليابسة بين يديه يفركها ليذروها في الهواء، في حين يمر بأصابعه ملامسًا بعض الورود والزهور متأملًا روعتها، منتشيًا بعبيرها، يناجيها أحيانًا ويُسائلها أحيانًا.

أقبل الصباح، ليلقي على الأرض حُلَّة من الإشراق ويغمرها دفئًا ونورًا وضياء. الجو دافئ والطقس صحو فخرجت الطيور من أعشاشها تحلِّق بأجنحتها، تشقشق بنغماتٍ عذبة. شعر بالجوع يقرقر بطنه، تقدَّمت صاحبته وأعطته بعض الطعام الشهي الذي التهمه بنَهمٍ شديدٍ مستعذبًا طعمه اللذيذ.

- هذا فقط حتى نجتمع بالملكة في وليمة أعدَّتها خِصِّيصًا لاستقبالك.

بُهِت وأجابها في ذهول:

- الملكة تدعوني أنا ؟!

- نعم، فأنت في ضيافتي، لا تستهن بي!

زلزلته كلماتها وازدادت رعدة فؤاده.

- لقد امتدَّت بيننا الأيام التي خلت من الجميع وامتلأت منكِ، فخبّرني بالله عليكِ، مَن تكونين؟ فقد اشتد عليَّ أمركِ وانقدتُ إليكِ طوعًا، فأي المقادير أحاطت لتحيلني بكِ حالًا وإليكِ مرتحلًا؟!

- حَرِيٌّ بمن أيقن تلك المعاني أن يعرف صحاح الأمور ويدرك ما استعصى عليه من الفهم، فلتصبر إن الوعد حق، وأنا وعدك وموعودك وموعدك.

في ثوب أخضر مُطرَّز بالقصب، وجدائلها الذهبية المعقودة على ظهرها، تقدَّمت "شهد" بوقارٍ وهدوءٍ تُحَيّي الملكة، في قاعة واسعة كانت تنتظرهم الملكة "فيرومونا" أمام مائدة عامرة بما لذ وطاب من الطعام والشراب المختلفة ألوانه.

كانت بشوشة الوجه، يجلس عن يمينها "اليَعْسُوب"، الذي قام لتقديم الترحاب ومعه بعض الحوريات ورجال الدولة. أشارت الملكة للجميع فجلسوا، فيما بعض الحوريات كنَّ يغنّين ويعزفن بألحان عذبة، وصغيرات العذارى يرقصن بمهارة وخفة لا مثيل لها كأنها لوحة فنية لأحداث في مشهد من رواية تاريخية.

ابتسمت الملكة في ود وبادرته بسؤالها:

- هل أنت مستريح معنا؟

- بالطبع سيدتي، المكان رائع والفتيات يؤدين عملهن على أكمل وجه.

هزَّت رأسها برضا وأردفت:

- وكم ستبقى في ضيافتنا؟

باغته سؤالها، فهذا ما لم يحسب حسابًا له، غمغم مرتبكًا:

- لا أعرف.

تردد صوتها في القاعة وأعقبه صداه:

- مرحبًا بك في كل وقت يا عزيزي.

مرَّ الوقت مبهجًا في ضيافة الملكة، لمس هدوءًا افتقده منذ زمن بعيد، استشعر خدرًا يسري في أوصاله، خلع أردية الريبة وتآلف مع المكان والزمان، فداعب الكَرى عينيه واستراح جسمه واستكانت نفسه وغطَّ في نوم عميق.

ليلة واحدة فقط ننام بلا كوابيس مزعجة، ولا أحلام مقلقة، نور ويقين ولا ظلام فيها بل كلها، لا يكون نور فراشنا فيها جمرًا متَّقدًا ولا وسائدنا لهيبًا مستعرًا، ننام بلا دموعٍ حارقة، بلا سهرٍ مضن، بلا تعب، بلا أرق، بلا ذكريات. نقضي على الكراهية التي نسينا أسبابها والشغف الذي لا حدَّ له، والحماسة لما لم يعُد واعدًا، والحنين إلى ماضٍ لم يكن جميلًا.

ليلة واحدة فقط لإكمال الروايات التي لم تكتمل، ووضع نهايات لأحداث لا تنتهي، لغناء كل القصائد القديمة وعزف الألحان الهادئة، للقاءات المرتبكة وإلقاء السلامات، لتبادل الابتسامات واللكزات أيضًا.

ليلة واحدة فقط أقول فيها "أحبكِ" دون مداراة أو مواربة، أجري فيها كل التجارب المؤجلة، المغامرات المنهكة والنزوات الطائشة، أعلن فيها اعترافات صادمة.

ليلة واحدة فقط يحتفظ فيها البدر بتمامه والقمر باكتماله والشمس بوهجها، تتخلى فيها الأرض عن لفّها ودورانها علينا، يتخلى القمر عن تخاذله والنجوم عن ترددها والشمس عن سطوتها والعتمة عن سوادها، لا يكون فيها الحديث همسًا والحب رجزًا والقطيعة لأهل المرحمة.

ليلة واحدة فقط لا ليكون الصباح أجمل، بل لنكون أخفَّ حملًا وأنقى سريرةً وأوضح بصيرةً. هذا كل ما تمنَّاه، ليلة واحدة فقط.

تذكَّر حين ضاقت به نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحُبَت وظن أنه وحيد وأن الأماكن خاوية على عروشها، تذكَّر حين زاد همه وحزنه وحمل نفسه الباهتة كما حمل خريف أيامه الطويلة ولياليه السُّود وأجنحته المُتَكسِّرة.

تذكر حين أعلن هزيمته في معركة لم يخضها بعد، فأرادها انتصارًا ولو للمرة الأولى والأخيرة، أرادها حصنًا يأويه بعد سقوط قلاعه وموت جيشه، أرادها ملاذًا بعد سفر طويل وسير عسير في دروب مُظلِمة، أرادها حضنًا بعد صقيع بارد وأمانًا بعد أن أُغلِقت كل الأبواب في وجهه، أرادها يدًا تُكَفكِف الدمع وهواءً يُثلج الصدر وماءً يروي جفاف أيامه قبل حلقه، أرادها سلامًا بعد أن تَعِب من الحرب، وحياةً لأنه على وشك الموت، أرادها حبًّا لأن الأرض مُلِئَت بالبغض.

❊❊❊

كان "أبو راغب" يتوسم خيرًا في ولده، ينتظر منه السند له ولشقيقاته، بعد أن ترك قريته فرارًا من الثأر الذي يحصد الأرواح بلا رحمة، كِره العصبية القبلية وكِره الثأر قَدْر كرهه رائحة الموت، كان يخاف البندقية، يرتجف من ملمسها، الموت الذي يصاحبها يختبئ في رصاصاتها، يتحيَّن الزمان والمكان، ليبدأ مسلسل بترٍ لا يكاد ينتهي.

للموت أسباب عديدة ليس بالضرورة أن يكون الثأر أحدها، كان يردُّ على أعمامه هكذا وهم يطالبونه بالأخذ بالثأر، ففي ربوع القرية سيلقبونه بالخائن الجبان.

قفز إلى مخيلته صورته وهو يسير مُطأطَأ الرأس في خِزْي، يقذفه الصغار بالحجارة وتبصق في وجهه النساء، فكَّر في الهرب بعيدًا ليضيع وسط زحام المدينة، ترك أرضه وماله وأهله بالسُّترة التي على جسمه، لينجو بنفسه، بل بإنسانيته، تنقَّل من مدينة إلى أخرى، لا يكاد يستقر في مسكن ويعرفه أهل الحي حتى تتنازعه المخاوف فيحمل حقيبته ويغادر في صمت، خمسة أعوام كاملة استطاع فيها أن يُغيِّر اسمه وعمله، بل جلده.

وقد اكتسبت بشرته لونًا جديدًا داكنًا مائلًا إلى الاحمرار من أثر الشمس، فقد كان يبيع بضاعته وسط الميادين وعلى قارعة الطريق، باع كل شيء، بدءًا من الحلوى والبسكويت، مرورًا بالحقائب والأحذية وانتهاءً بالملابس التي وجد في تجارتها الخير الكثير، استطاع منه أن يستأجر محلًّا صغيرًا يعرض فيه بضاعته، وليعرف المرأة التي تزوجها فيما بعد لتُقاسمه خوفه وقلقه، ورضيَت أن ترتحل معه كل مدة.

واجتمع اثنانِ اللهُ ثالثهما، لتحفظ الثانية سرَّ الأول وتصونه، قال لها يومًا:

- أنا كورقة بيضاء، فلتخُطِّي بيمينكِ ما سيقرأه الناس عنا، سنواجه الحياة بصدور عارية، سأكون معكِ وأمامكِ أتلقى صدمات الحياة وأدافع عنكِ بكل ما أوتيت من قوة، من قوتي وحدي، لا أب يُساند ولا أم تُناضل ولا عم يَرعى ولا خال يَحمي، فأنا

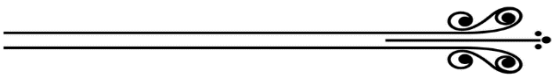

مقطوع من شجرة وإن كانت شجرة عملاقة بظلِّها وظلالها، لكن مغانمها ليست من حقي، لقد تراخى بي الزمن، فما أبعد الماضي وإن طال الفكر! أنا مطرود ومُطارَد ومضطرد بكامل إرادتي وبكل وعيي.

أسرَّت شفقتها عليه في نفسها وإن كادت تبدي له حبًّا وإعجابًا بصلابته وصموده، فارتد إليها طرفها وقد شغفها احترامًا قبل حُب.

- سنكتب معًا ما أراد الله لنا أن نحياه، ولا تنسَ أنني وحيدة يتيمة الأبوَين، ليس لي سوى عَمة عجوز أعيش معها، أسعى على رزقي ورزقها، لست أدري إن تركتها مَن سيرعاها ويهتم بها.

- ستعيش عمتكِ معنا يا راضية، فأنا بشوقٍ جارف إلى دفء عائلة، وسبحان من يمنع ويمنح، يأخذ ويعطي، يحرم ويهب. حرمني حنان عائلتي ووهبني أسرة جديدة، فالحمد لله حتى يبلغ الحمد منتهاه.

لكن الأقدار تختار وعين المولى ترحم وترعى، فبعد عقد القِران وهما يستعدان للزفاف، وافت العمة المنية ورحلت عن الدنيا، ليكونا بالفعل وحيدين، استأنسا ببعضهما، فيسد أحدهما ذاك الثقب في قلب الآخر الذي يسد تلك الفجوة في روح الأول.

وأنبت الحب ثمرة أولى، هي فتاة جميلة، "سلوى" قُرَّة عين أمها وروح أبيها، ثم تبعها ولد آخر أسمَياه "راغب"، كان معقد الآمال ومنتهى الرجاء، وتلاهما "جنى" بخفة ظلِّها وحيويتها، حتى كان مسك الختام وبدر التمام "سُلاف"، حبَّة القلب ونور العين، بركة المنزل وخيره، بل طُهر الكون ونقاؤه كله.

وفي رحلة الحياة حاول الأب أن يوفر لأبنائه حياة كريمة تكفيهم ذلَّ السؤال وقهر الحاجة، كان يواصل الليل بالنهار كدًّا وتعبًا، بالكاد وفَّرَ لهم الضروري من متطلبات

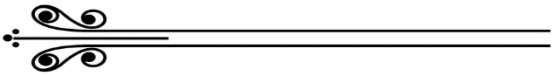

الحياة، حتى جاء مرض "سُلاف" ليستنزف كثيرًا من قُوت الأسرة، وحتى يكمل "راغب" تعليمه انحنى ظهر الأب وكلَّت قدماه، لكنهم كانوا يبيتون بقناعة ونفس راضية، فقد كان أبوه دَومًا يقول:

- إن الحياة قصيرة، فلا تذهب نفسك عليها حسرات، لتبدأ بالصبر وتنتهي بالرضا فتحوز الدنيا بحذافيرها.

كان البيت الذي يعيشون فيه بسيطًا، أثاثه متواضع، غرفتان صغيرتان إحداهما للبنات والأخرى لـ"راغب"، وحجرة كبيرة تضمُّ مقعد الضيوف وأريكة للأب ومثلها للأم، التي كانت تتجول في المنزل طوال الليل، لا تضع جنبها حتى يسكن الجميع وتطمئن على الكبير قبل الصغير.

لم تشْكُ يومًا ضيق الحال وكثرة العيال، بل دائمًا هي حامدة راضية، وبالفعل كان اسمها "راضية" فكانت كشجرة السنديان العتيقة تمنح الجميع ظلَّها وظلالها، لكن ما أوجع قلبها وجعلها تشيخ قبل أوانها مرض "سُلاف" الذي طال بلا أمل، فلم تملك لها إلا الدعاء.

"سلوى" أخته الكبرى، صاحبة الطلَّة الجميلة، تمتلك عينين واسعتين وقلبًا أوسع من المحيط، قبِلت الزواج بـ"خيري"، وهو رجل متوسط الحال، لتخفف العبء عن كاهل والدها، فعاشت حياةً صعبةً تكاد تتدرج تحت خط الفقر.

كانت الشمس ترحل وقد تخلت عن وهجها ونورها، لتغطس ويبتلعها اليمُّ كما ابتلعته الحياة من قبل، ليصير ترسًا من تروسها التي لا تكلُّ ولا تملُّ من الدوران.

ذاب السؤال في عتمة أفكاره، والأب يسألها:

- أهي بخير؟

هزت رأسها:

- الحمد لله على كل حال.

"سُلاف" ابنته الصغرى، ضمَّها إلى صدره فدفنت رأسها الصغير فيه، تحتاج إلى حنانه كله، نظرت إليهما الأم مطرقة الرأس وقلبها يعتصره الألم على فلذة كبدها التي تصارع مرضًا يسيطر على عقلها ويُكبِّله، فبينما يكبر جسمها يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام، يظلُّ عقلها لا يبرح مكانه ولا يتجاوز أعوامه الستة الأولى، ومع ضِيق ذات اليد لم يستطع الأب توفير رعاية صحية مناسبة لها، بالكاد بعض ما يحصلون عليه من دعم أطباء المراكز الطبية أو المستشفيات الحكومية، استسلما لقدر الله ورضِيا بما قسمه لهما.

أُم "راغب" لا تكُفُّ عن البكاء كلما نظرت إلى ابنتها، كانت تبكي حين تُبدِّل لها ملابسها كأنها طفلة صغيرة، كانت تبكي حين تجلس إلى ابنتَيها توصيهما خيرًا بأختهما المريضة، كانت تبكي حين تطلب من "راغب" البحث عن مركز لتأهيل ذوي الاحتياجات الخاصة فيعِدها ثم ينسى، كانت تبكي حين تنظر إلى وجه زوجها، كانت تبكي ولكن لا أحد يراها ولا تترك أحدًا يطَّلع على بكائها.

لا تترك نفسها فريسة للبكاء كثيرًا، فقط تجد فيه متنفسًا وسرعان ما تحمد الله وتبتسم في رضا، كانت تبيتُ الليلَ مطرقةَ الفكرِ حزينةً على حال ابنتها، تفكرُ في مصيرها إن هي رحلت وتركتها، وكثيرًا ما كانت تذهب ليلًا إلى فراش "سُلاف" وتلقي عليها نظرة لتطمئن، فتجد في وجهها نورًا وعلى جبينها سكينة وطُمأنينة فتغمرها راحة البال ويتغمدها رضا ويقين كبير.

وكلما ابتسمت "سُلاف" اطمأنت أمها بوعد ربها فهو خير الحافظين، كانت تَرجمُ الإحباطَ ببسمةٍ مشرقة.

نامت ذات ليلة وكانت مهمومة بحال ابنتها، فرأت في منامها رجلًا يرتدي البياض، وجهه يتلألأ نورًا وثغره يبتسم حبورًا، عليه هالة من وقار. نظر إليها برضا فاطمأنت، وكانت تحمل "سُلاف" بين يديها فأشار إليها الرجل بثقة ومدَّ يده يلتقط الصغيرة، مسَّد شعرها مرة بعد مرة ونظر إلى عينيها ثم أعاد الكَرَّة، كانت يداه بيضاوين لا شِيَة فيهما ووجهه نور لا تقاسيم فيه، فرفع الصغيرة كأنما نبت لها جناحان فحلقت فوق رؤوسهم، والهالة البيضاء تزداد اتساعًا، ليضحك الرجل حتى تظهر نواجذه ويشير إلى الصغيرة لتعود إلى أمها كي تَقر عينها ولا تحزن، وحين تضمها الأم بين ضلوعها تُشفَى من سقمها وتغادرها علَّتها، كأن لم تمرض من قبل، فتغدو صبية جميلة القدِّ ممشوقة القوام كاملة النضج والأنوثة، وتبدأ في ترديد الأذان لتصدح "الله أكبر"، فتُكبِّر الأم مرات متتاليات "الله أكبر الله أكبر الله أكبر"، تصحو على صوت أذان الفجر صادحًا ولا تزال بالتكبير تردد "الله أكبر"، تقولها من قلبها قبل لسانها.

انتفضت الأم من فراشها وقد ملأت حناياها السعادة، وكلما تذكرت رؤياها تطرب، هاتفٌ يناديها أن المريض سيشفى والشقي سيسعد والمستقبل أفضل وأجمل.

كان لـ"سُلاف" خيالٌ جبار، كانت ترسم كل ما تراه، تعبر عن نفسها بالرسم فترتب به ما تبعثر من مشاعرها وما استحكم من مغاليق عقلها، وأول ما رسمت هو عائلتها، رسمت صورة بسيطة للأب يجلس وبجواره الأم، في حين تمسك "سلوى" بيد أختيها "جنى" و"سلاف" ويرتسم على شفتيها ضحكة رائعة، أما "راغب" في ركنٍ قصيٍّ من اللوحة بين كتبه وأوراقه لا يُعيرهم اهتمامًا.

كانت تعابير وجهها البسيطة ونبرات صوتها التي لا تتعدى بضع جمل قصيرة تدل على براءة طفلة في السادسة وجسم شابة في العشرين من عمرها، كانت تضحك حين يبكي الجميع وتبكي حين يفرحون، فرشاتها تتمتع بتفاصيل متقنة وألوان متناغمة لروح جميلة

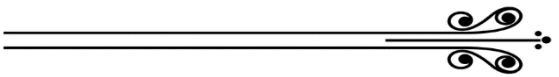

ونفس شفيفة، ترسم أناسًا لم ترهم من قبل، فذاكرتها تعجُّ بآلاف الوجوه التي رأتها وإن لم تتعرف عليها أو حتى تتذكرها، فرشاة تحكي كل شيء وتبوح بكل سر، وإن لم تُوهَبْ لسانًا فصيحًا أو عقلًا ناضجًا، عيناها تلمعان بقوة، تُحرك رأسها باستمرار، تُغمغم بكلمات غير مفهومات، كان نضجها كشعاع ضئيل يتراقص من بعيد في نفق مظلم والسنوات تمر والشعاع يخفت تدريجيًّا حتى يكاد ينتهي.

في الصباحات الباكرة، ترى قريناتها يرتدين زيَّ المدرسة وتُزيِّن رؤوسهن الشرائط الملونة، فتأكل الحسرة قلبها على فلذة كبدها ويعتصرها الأسى. كم عانت من المقارنات الظالمة والقاتلة بينها وبين أختَيها! المرارة التي تعانيها قتلت كثيرًا بداخلها حتى أصبحت عاجزة عن التعبير، أصبحت تتأقلم مع حطامها الصامت لتعتاد التعاسة ولتنطفئ رغبتها في الحياة، بل تتمنى أن يكون في المستقبل أقل قدر من الآلام. بعض الانكسارات تترك فينا شيئًا لا نستطيع تجاوزه، وتلك الجراح التي تتركها تظل تؤلمنا وإن توقف النزف وإن بدأنا في التعافي، تظلُّ ذكرياتها تُوجِعنا وتذكرنا بأن تلك المعارك القديمة قد أنهكتنا تمامًا. لكن ما كان يجعلها تتشبث بالأمل وتقاوم الغرق في طوفان الألم هو أولادها وبخاصة صغيرتها "سُلاف"، فقد كانت تدرك أن الناس لا يحيون لأنفسهم، بل يحيون لتعلق الآخرين بهم كطوق نجاة.

- لِمَ كل هذا الشرود يا راضية؟! أخبريني ما بكِ؟

قالها "أبو راغب" بعد أن رآها تجلس بجوار النافذة تتطلع إلى الطريق ولا ترى منه شيئًا.

تنهدت بحرارة والتفتت إليه بعد أن استفاقت على صوته الحنون:

- قلِقة أنا على أولادي وبخاصة سُلاف.

"راضية" التي تجاوزت الأربعين ببضع سنين تمتع بصبغة الحياء وهو ما يميزها عن بقية النساء.

ابتسم مداعبًا:

- لا تفْرطي في حبك لهم واستودعيهم الله مولاهم، هو أرحم بهم منا، وهو أحن على صغيرتنا من أنفسنا، فلن يضيعها الله.

أومأت برأسها موافِقةً وهي تردد:

- ونِعم بالله. قل لي بالله عليك ماذا فعلت في المبلغ المطلوب للجلسة العلاجية الخاصة بسُلاف، موعدها غدًا.

- يدبرها الله، هو مولانا وهو نعم المولى ونعم النصير.

تنهدت عبر خواطر يمتلئ بها صدرها:

- أنا أم قبل أي شيء، أريدهم عكازَ فجرٍ أتوضأ قبله بحبهم وأتكئ عليه في المساء قبل أن أنام، وإن غاب الجميع يتسع كتفي لحملهم حين يعودون. أحلم بصلاحهم ولا حيلة لديَّ إلا الدعاء، فهو سلاحي الوحيد الباقي بعد أن نفدت كل حيلي عندهم. أريد دموعًا لا تهرب من عيني أمامهم وكفًّا تتسع لرعشة يدي، أريد ابتسامة لا تعلق فيها أصوات العالقين بداخلي، أريد يومًا فضفاضًا يسع تفاصيلهم فأنا أحبها كلها. لا بأس، ما يزال عندي كثير من الحكايا ليكبر الصغار، كثير من الهموم ليملأ الطناجر ويفيض فأطهوه وأوزعه على المارة، كثير من الأصابع حاولت أن أمسكهم بها فاحترقت، يدان حاولتا التقاطهم بها فسقطتا. أدركت اليوم أن نظري ضعيف، لم أستطع رؤية عيوبهم، أو لِنَقُل لم أحب رؤيتها. كثير من المسكنات التي أرهقت كبدي، حبات الدواء التي امتلأ بها جوفي، كل ذلك سرٌّ حتى لا أرى في أعينهم حزنًا ولا ألمًا. ربما أتركهم يومًا، لكن

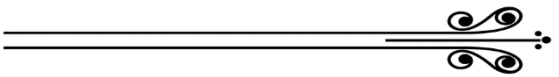

سأخبرهم بأنني باقية لن أرحل، ستظل روحي تحاوطهم ودعائي يسبقهم وقلبي يرعاهم ويحفظهم.

لاح من بعيد طيف ولدهما قادمًا، مرَّ بهما ليُلقي السلام ويرحل كشعاعٍ باهتٍ لا تأثير له ولا أثر.

تمتمت الأم قبل أن يغادر بصوت مشحون بالألم:

- لا تنسَ ما طلبته منك يا راغب، فجلسة أختك موعدها الغد وربما وجدت لنا مخرجًا عند أحد أساتذتك أو زملائك.

لوَّح بيده في الهواء، وغادر دون رد.

كانت تأمل منه أن يكون راعيًا لشقيقاته مراعيًا لوالديه، لكنه كان لا يبالي بأي شيء.

***

فرض على قلبه عقابًا قاسيًا بالفرار من كل ما يتعلق بماضيه حتى ذاك الحنين إلى جذوره وعائلته، بتريح ضميره لكنه يتجرع مرارة قسوته رويدًا رويدًا.

ففي رحلة الحياة، تتعانق الأمنيات بالقلوب، فما تلاقى منها أثمر وأينع وما سقط ففي قعر القلب جبه ومكمنه، وهو رجل مضعته الخطوب، بعض الخبز وقطع الجبن الأبيض كانت فطورًا صباحيًّا معتادًا، وكوب شاي من يدها لهو النعيم المقيم، بساطة واقع أم عظم رضا وطول صبر ويقين، الحب شعور غير قابل للتفاوض، كانت هي لحظات صدقه، نصفه الذي وجده بعد عناء.

"أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه"، كررها "أبو راغب" مرارًا وخطوط الزمن التي حاوطت جانبي ذقنه تزداد.

- أبيع نصيبي من الأرض، هذا هو الحل الوحيد.

ألقاها في وجهها دفعة واحدة، ردت باترة لجدال على وشك الحدوث:

- لا، لن تذهب إليهم برجليك، سيقتلونك!

كانت "راضية" تخاف عليه أكثر من نفسه التي بين جنبيه، بمشاعر زوجة تعلم ما يقض مضجعه تعلم عجزه وقلة حيلته.

رمقها بحسرة وغضب:

- علاج سلاف يا راضية.

رغمًا عنها صرخت رافضة:

- أنت أهم عندنا من الدنيا وما فيها!

استقام وتوجه نحوها بخُطا بطيئة ليهمس بحروف ثقيلة لا يود أن يسمعها لأحد:

- وماذا سنفعل؟

- يدبرها الله الذي لا يغفل ولا ينام، حاشاه ينسى عباده.

جاورها على الأريكة القديمة، كانت ترتدي شالًا صوفيًّا وبجوارها مذياعٌ قديمٌ تتطايَر منه براجٍ صباحية خفيفة تناسب قلنسوته المزركشة بألوان الطيف، صنع يديها لشريك عمرها.

بالسلامة يا حبيبي بالسلامة

باصبَّح عليك

إيناس جوهر، تسالي

غمض عينيك وامشِ بخفة ودلع

الدنيا هيَّ الشابة وانت الجدع

تشوف رشاقة خطوتك، تعجبك

لكن انت لو بصيت لرجليك، تقع! عجبي

ابتسمت تجاهد تلال الحزن الرابض فوق صدرها وغيرت المؤشر باتجاه إذاعة القرآن الكريم، رمقته بحنان ثم قالت بنبرة أثيرة:

- اتركها على الله، سأدبر جمعية مع بعض الجارات.

على الرغم من ملامحها الباهتة وذلك الضعف والهزال الذي تبدو عليه، فإنه يراها أجمل نساء الكون، وما بينهما لا تستطيع أن تطلق عليه حبًّا، فهو أعظم من هذا بكثير. فحين سُئلَت "راضية" ذات مرة عنه قالت: "ظله أمان، طرفه ستر وحضنه كون رحيب"، واختتمت بابتسامة خجلى: "وحسه بالدنيا".

استبشر خيرًا بطلة ابنته "سلاف" فضمها إلى جناحه لثوان، وجلست بجواره تهز رجليها بوداعة طفلة:

- صباح الخير، صباح النور على البنور، يجعل نهارنا هنا وسرور يا بابا ويا ماما.

تلك بهجة الحياة.

منامتها الشتوية وذاك اللكلوك المنتفخ في قدمها، أنوثة موءودة في رحاب طفلة صغيرة لم يتجاوز عقلها بضع سنوات، في حين أن جسمها يفوقها بضعفين على الأقل.

راغب

كنا اثنين و"عمرو" ثالثنا، أصدقاء مدرسة، تشابهنا في السجايا وإن اختلفت هيئاتنا. "أحمد" كان أكثرنا ذكاءً وتفوقًا، نجح في الإعدادية بتفوقٍ مبهر، وكان الأول على المحافظة. "عمرو" كان مغرمًا بالبحث العلمي، لكنه يضيع أغلب وقته في قراءة الكتب السياسية ومتابعة الأخبار العالمية. أما أنا فكنت بينهما، لا إلى هذا ولا إلى ذاك، كنت مهتمًا بدراستي وعلومي وفقط.

"عمرو" الذي كان نعم الصديق، اصطفيته لنفسي، و"أحمد" الذي كان نعم الأخ، فاتخذته خليلي.

السماء التي بكت مؤخرًا هتونًا حانيًا يُقبِّل صفحة الأرض بحياءٍ فتستقبله بخجل، استيقظنا ذات يومٍ ليفجعنا خبر وفاة "أبو أحمد"، وكان "أحمد" على عتبات الثانوية العامة، ترك له أبوه عائلة مكونة من أخٍ أصغر وابنتين وأم، لا عائل لهم، ما اضطره إلى البحث عن عمل.

ومع إصرارنا على استكماله الدراسة كنا نمده بالكتب والمراجعات، ونرتب أوقاتنا كل جمعة لنشرح له الدروس، ومرَّتْ الامتحاناتُ على خير. ويوم النتيجة كنت و"عمرو" حاصدين الدرجات ذاتها والمجموع تقريبًا فالتحقنا بكلية الطب، أما "أحمد" فقد نجحَ

بمجموعٍ ضئيلٍ ليلتحق بكلية متواضعة. فرحنا بالنجاح واستمرت علاقتنا مترابطة مع "أحمد" الذي كبر قبلنا، كان يتصرف كالرجال، يفكر كالكبار، على الرغم من أنه لا يزال في مرحلة الشباب، فإن رعايته لأسرته ومسؤوليته عنها جعلت منه رجلًا ناضجًا، مما أضفى على العلاقة بيننا وبينه أيضًا ظلال المسؤولية عنا بشكلٍ أو بآخر، فقد كان دائمًا الناصح الأمين، كان يحمل همَّ عائلته وهمَّ دراسته، فابتعد عن المزاح واللهو، لا يعرف غير الجِد في حياته، وكما يقولون إن الصاحب ساحب، فقد سحبنا "أحمد" إلى الرجولة، ومضت بنا الحياة، ولا نزال على عهدنا مع "أحمد" ولا يزال على عهده معنا. فذلك النهر الذي يمضي في طريقه يتدفق، لا يُغيِّر اتجاهه مهما مر على أرضٍ صخرية أو تربة طينية، فخيّره إلى الجميع واصل، يسقي هنا وهناك، الزهور اليافعة كما الأشواك القاسية، فالحياة مثله تمامًا تمضي بنا، تحملنا السعادة تارة ويلطمنا الحزن تارة، ولا يبقى شيء على حاله، لكنها لا تقف على أحد، فلا فرح يطول ولا حزن يدوم ويخلف الله.

أسندت رأسي المثقل بالصداع إلى مقعد، وبعبثية صارخة صاح "عمرو":

- الفريسة حين تدرك أنها ستقع في شباك الصياد، يفرز المخ هرمون الأدرينالين فتتضاعف قوة ركضها ويدفعها الخوف من الأسر إلى محاولة الهرب ولو بدت مستحيلة.

قفز "أحمد" وبفرقعة من إصبعه رفع علامة النصر.

- نعم، وهو ما يفعله البشر غالبًا.

***

طنين مستمر

"أنثى لها مئة عين في رأسها وثماني وأربعون سنًّا في فمها وثلاثة قلوب في جوفها وست سكاكين في خرطومها، لكل سِكين وظيفة، ولها ثلاثة أجنحة في كل طرف، وجهاز حراري يُحوِّل لون الجلد البشري في الظلام إلى لون بنفسجي حتى تراه، وجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرس إبرتها دون أن يشعر الإنسان، وما يشعر به كالقرص يكون نتيجة مصِّ الدم، مُزوَّدة بجهاز تحليل دم، فهي لا تستسيغ كل الدماء، لها جهاز لتمييع الدم حتى يسري في خرطومها الدقيق جدًّا، وتستطيع شمَّ رائحة عرق الإنسان من مسافة تصل إلى ستين كيلومترًا، ولها القدرة على نقل أمراضٍ كثيرة أشهرها الملاريا".

اختتم "أحمد" حديثه بابتسامةٍ وهو يُطبِق كفَّيه على ناموسة صغيرة، بينما أنا و"عمرو" ننصت لحديثه بشغف وانبهار، إذ على الرغم من ميوله السياسية في القراءة، فهو مثقف في شتَّى المجالات.

***

كانت زميلتي في الجامعة فلسطينية الأصل، تدرس الطب في مصر، كانت آية في الجمال، عيناها نابهتان وبشرتها بيضاء كالثلج، حماسها وثوريتها في النضال والدفاع عن قضيتها، فتاة تمردت على الأنصاف في زمن عزَّ فيه الإنصاف. أثارت اهتمامي فتقرَّبتُ منها حتى صرنا نتحادث كل يومٍ وسط مجموعة الطلبة في كل شيء، الدراسة والاقتصاد والسياسة. تقيم في سكن خاص بالمغتربات، تطورت المحادثات بيننا من ثرثرة يومية حول الدراسة والمدرسين والطلاب إلى ثرثرات حول الأحداث والقضايا والسياسة، ندرس الطب ذاته ولكن كل بطريقة مختلفة ونظرة مختلفة وغاية مختلفة.

رمقتها بشرود وهي تقف بكل جدية تليق بها وبقضيتها.

- ألا تفكرين في شيء غير بلدك؟

وضعتْ يدها على فمها بصدمة أمام جملتي.

- وما يستحق التفكير سواها؟!

كنت أُحدِّق إليها، في تفاصيلها أحاول تمرير اللحظة، فنهايتها صدام لا محالة.

زفرتُ وهي تجتاز بوابة الجامعة إلى مبنى كلية الطب، هي لا تريد خاتمًا يزين بنصرها، هي تريد من يشاركها قضيتها.

إحساس خانق يستحوذ عليها، "راغب" لا يتوافق مع شخصيتها، يومًا بعد يوم، أسبوعًا وراء أسبوع، شهراً تلو شهر يتأكد إحساسها، هو لا يؤمن بقضيتها وإن بدا متعاطفًا معها. حتى وإن آمن بها وصدقها وانفعل معها، فهي لا تريد هذا فقط، لا تكفيها مشاعر الحزن والغضب على القدس المستباح، لا تكفيها حنجرة تهدر بهتافات عقيمة مملة لا تجدي نفعًا، هي تريد من يحيا معها حياة الجهاد، من يؤمن بوطنها كقضية وبالأقصى عقيدة، تريد من يتفهم متطلبات أهدافها ومعقد آمالها.

هو ليس رجلها.

كانت تبتهل إلى الله في صلواتها بأن تُكتَب لها سجدة في المسجد الأقصى مُحرَّرًا من دنس اليهود، قبل أن يقبضها إليه. كانت تعيش بكيانها كله من أجل تحقيق تلك اللحظة، يتنازعها شعوران متضادان، أحدهما اطمئنان والآخر قلق، اطمئنان تجاهه فهو صادق، قلق من سلبيته ولا مبالاته.

اتسعت خطاها وكنت أحاول اللحاق بها، وبلفتة صارمة سألتني:

- ما يعني لك الأقصى يا راغب؟ وما رأيك في الجهاد؟ وما هي غايتك الكبرى؟

تلعثمتُ مغمغمًا وقبل أن أجيب استطردت بثبات وحزم:

- لا أريد جوابًا الآن، فكر مليًّا ولنا حوار آخر بعد نهاية الامتحانات، فكلانا بحاجة إلى وقت لترتيب الأفكار.

كان اسمها "شهد"، وبالفعل كانت كقطعة شهد صافية، النمش المتناثر في وجهها كنجومٍ في ليلةٍ لا قمر فيها، أحببتُها بكل جوارحي وتمنيتها زوجة، لكنني انتظرت تحسن الأحوال وانتهاء الدراسة حتى أتقدم لطلب يدها، بيّد أني صارحتها بمشاعري فسكتت ولم تجب، أفترت شفتاها عن بسمة خجول اعتبرتها بدوري موافقة، فكما يقولون: "السكوت علامة الرضا".

غنَّت العصافير على الأشجار وشدَت المياه في الغدران، تراقصت أعمدة الإنارة ولافتات المحلات فرحًا، الكون كله ابتهج بحبٍّ عفيفٍ نبتَ للتو بين قلبين غضين. كانت "شهد" شعلة متقدة من الحماس، ففي السنة الثانية من التحاقنا بكلية الطب كانت تُنظِّم بصفة دورية وقفات احتجاجية، وتعقد ندوات حول القضية الفلسطينية، كانت تؤمن بشدة بحقها في العودة إلى الديار وبضرورة الحرب ضد العدو الغاشم، وتوالت تحذيرات رئيس الجامعة ورؤساء مكتب شؤون الطلبة أو شؤون الجامعة وغيرهم من القيادات لها ولمجموعة مرافقة لها. كم حدثتني عن "صابرا وشاتيلا"، أطفال الحجارة و"محمد الدرة" وغيرهم. كنت أراها متحيزة لقضيتها أكثر من اللازم، أؤمن بكل حرف تقوله ولكن مع استسلام تام للواقع إذ لا أمل في تغييره. كانت تلك طبيعتي، عكسها تمامًا، ومن هنا بدأت الخلافات بيننا. كانت أفكارها نابعة من ضميرٍ لم يتلوث، عفوية غير قابلةٍ للمزايدة وغير صالحةٍ للتزييف. أما أنا فكنت دائمًا منزويًا أعيش في عُزلة اختيارية، لا أصاحب أحدًا إلا نادرًا، أهتم بدراستي ونفسي فقط، وفي رحلتي في دراسة الطب رأيتُ

كَم الحياة غالية، تتشبَّثُ بها أجسام المرضى بقوة، وكنت أرى الموت ذلك الخيط الرفيع الذي ينسلُّ عن الجسد بهدوء، ليتركه جثةً هامدةً غير عابئ به. كنتُ أرى كيف تغرب الأعين وترحل في صمت تاركةً الأحبة يتجرعون كأس الفقد، كنت أسمع حشرجات الأنفس الأخيرة التي ينتزعها ملك الموت ولا يزال أصحابها يقاومون حتى الرمق الأخير.

هانت عليَّ الدنيا ولم تعد لها سطوة عندي وزادتني بلادةً على بلادتي فلم أعد مهتمًّا بشيء، أن ترى الموت بعينيك أمر صعب، والأصعب أن يصبح تعدادًا رقميًّا لا رهبة له، فيكون أمرًا اعتياديًّا. كانت دراستي حلقة وصل بين الحياة والموت، فأحيانًا تخفف الألم عن جسد أرهقه المرض وأحيانًا تخرج نَفَسًا من نَفْسٍ بأمر الله، فتوهب لها الحياة بين يديك، وأحيانًا يموت أحدهم منك في منتصف الطريق فترى دموعًا وتعرف آهات وجعٍ وتسمع صرخات تشق القلوب لفقد الأحبة.

أما "شهد" فكانت نظرتها إلى الأمر مختلفة، إذ كانت تقول إننا نعرف من خلالهم معنى الحياة ونقدر قيمتها. اتَّهمتني باللا مبالاة والسلبية عقب كل نقاش، تصفعني كلماتها على وجهي صفعة أشد من صفعة الكف.

في أحد النهارات المشمسة، التقيت "عمرو" و"أحمد" في الجامعة، ترجَّلنا حتى وصلنا إلى المكتبة، ليبحث كل منا عن كتابٍ مناسب. كانت تجلس وحيدة فجاورناها وبدأنا الكلام.

- مرحبًا شهد.

- مرحبًا راغب.

- أُعرِّفك بصديقَيَّ أحمد وعمرو.

هزت رأسها بتحية وقورة.

جلستُ أمامها مرة وعلى وجهي علامات التردد والقلق، فقالت:

- ما بك يا راغب؟

أطلتُ النظر إليها وكلي إشفاق عليها.

- أخشى عليكِ مما تفعلين، كثُرت التحذيرات والتلميحات لكِ من إدارة الجامعة.

اختفت ابتسامتها واعتدلت في مجلسها وردَّدت:

- "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا".

كانت عيناها تحملان جذلًا وبريقًا زادها حُسنًا فوق حُسنها، استطردتْ:

- أنا أدافع عن حقي، عن أرضي التي سلبها الأعداء، عن وطني الذي صار مستباحًا. لم يحتلونا لقوتهم يا راغب، صدقني، لقد احتلونا لضعفنا وهواننا، وهو أننا حين تكالبنا على الدنيا وانشغلنا بأنفسنا، وبِاسْم السلام استُبِيحت الحرمات وسُلِّمت البلاد إلى الأعداء، فأُقيمَت المُستوطَنات وهُجِّرت العائلات وهُدِّمت القرى والمحافظات.

صمت بدأ متململًا بينهما، لكنه كان مقطوع اللسان، تفرسَتْ في ملامحه، كادت أن تصارحه، إن أخبرته فقدته وإن كتمت عنه خسرته، لكنها في النهاية يزداد يقينها ببعد المسافات بينهما. عانقت حزنها حتى انصهرت معه، ذابت فيه لتبدو صامدة. أن ترحل عن وطنك وتترك فيه (قلبك وروحك...) ويبقى القوس مفتوحًا في انتظار مزيدٍ من التنازلات.

تهاوتْ على كرسيها في وهن، قطعَ حسرتها صوت الطلابِ متلحفًا بكسوةٍ من همهمات وتمتمات متقطعة.

في يوم مُشْمِسٍ رأيتها في صحن الجامعة تشتعل عيناها غضبًا، بادرتني:

- هل سمعت آخر الأخبار؟

أجبت:

- لا، ماذا حدث؟

ناولتني جريدة خُطَّ عنوانها بخبر عريض.

"إحياء عملية السلام

"انعقاد مؤتمر السلام بين الوفد الفلسطيني ونظيره الإسرائيلي غدًا باستضافة العاصمة الإسبانية، وستشارك فيه بعض الوفود العربية والغربية لمدة ثلاثة أيام".

كانت تغلي، كأن مَراجِل من غضب تتلظَّى بداخلها، وصاحت غاضبة:

- كيف يجتمعون مع أحفاد القردة والخنازير بعد كل ما صنعوه بنا؟! وعن أي سلام يتحدثون؟! اتفاقيات السلام التي أعادت بعض المبعدين إلى وطنهم، هل استطاعت إعادة الوطن إليهم؟!

قالتها بغيظ واستنكار (٢)، ثم تابعت ولم تنتظر مني ردًّا:

- إنه مؤتمر العهر والنخاسة، سُحقًا لهم!

كانت تتحدث كالملسوعة، كأن نارًا تحرق جسمها.

---

(٢) اتفاقية أوسلو هي التي وُقِّعَت في أيلول، ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، وهي أول اتفاقية رسمية مباشرة بين إسرائيل، التي كانت ممثلة في وزير الدفاع آنذاك شمعون بيريز، ومنظمة التحرير الفلسطينية الممثلة في أمين سر اللجنة التنفيذية محمود عباس.
وقد شكَّل إعلان المبادئ والرسائل المتبادلة نقطة فارقة في شكل العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل، بحضور الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون، وسمي الاتفاق نسبة إلى مدينة أوسلو النرويجية التي حدثت فيها المحادثات السرية. [موقع: ويكيبيديا، عنوان المقالة: اتفاقية أوسلو].

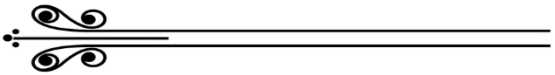

- كيف لوطنٍ أن يُباع بتلك الفجاجة؟!

بكت "شهد"، بكت وطنًا، بل خُذلانًا وضعفًا، لكن ما فائدة البكاء؟! تركتني وهي تلعن الأنظمة والزعماء العرب، كانت أعند من أن تتراجع عن فكرها وأقوى من أن يثنيها أحد عن عزيمتها.

تعاظمتْ على صدرها الذكريات، وتثاقلت على قلبي الأحزان، ولا تزال تغلبني الحيرةُ في أمرها، ويدهشني الثباتُ على قضيتها، أما هي فعبست وهي تشبك ذراعيها أمام صدرها بوجوم، فتذكرت حين أطبق الجنود على منزلهم ذات يوم لم يخطر في بال أحد، أن تلك القوة بأكملها قادمة لاعتقال شقيقها الصغير، اقتلعوا البابَ بقبضتهم العنيفة وكانت هي على بُعد شبر لا أكثر من الباب، وعند الزاوية كانت تقف أمها، امتدت أيدٍ كثيرة تمسك به، فتى لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، اندفعوا يحطمون المكان مجتاحين كل شيء أمامهم مبعثرين كل ما تطاله أيديهم، كانوا أسرع بكثير من صرخات أمها وهم يدلفون بشراسة إلى حجرة الصغير وينتزعونه عن فراشه الدافئ. "عمار" الطفل الصغير الذي صعد شجرة بجوار مدرسته وعلَّق العلم الفلسطيني عليها، تلك هي جريمته.

كانوا يجرونه جرًّا رغم تشبثهم به، لم يرحموا دموعَ أمه وتوسلات أبيه وهو يستعطفهم: "خذوني أنا مكانه، فهو طفل صغير". تلك المداهمة سحقت قلوبهم لكنها لم تُثِر الخوفَ فيهم رغم اللطمة التي تلقاها أبوه واللكمة التي طرحت أمه أرضًا كي تترك ولدها. تلك اللكمة التي أجبرتها على أن تضع يدها معلقة في جبيرة حول عنقها لمدة شهرين كاملين حتى عاد الصغير إلى حضنها مرة أخرى، يومها فكت أمه الجبيرة وأطلقت الزغاريد. في المساء، أعدت المنسف (٣) بعد أن ذَبح أبوه خروفًا ابتهاجًا بسلامة ولده.

---

(٣) المنسف: أكلة شعبية فلسطينية، وهي عبارة عن لحم ضأن مطبوخ باللبن فوق خبز الطابون الذي فوقه طبقة من الأرز، ويُزيَّن بالصنوبر المحمص واللوز.

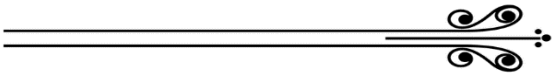

اجتمعت العبرات في عينها والصرخات في جوفها، فالتفتُّ إليها وازداد إشفاقي عليها، وقد غشيت وجهها مسحة استنكار. الهواء الذي كان بيننا لم يحمل منا إلا الصمت، وماذا يقال وليس للكلمات معنى؟!

وسط الجامعة تحلق عدد كبير من الطلبة والطالبات حولها، تهتف "شهد" وتُلهب حماسهم، وقد اشتعلت ملامحها بالغضب:

الأرض أرضي أنا وأخي ضحَّى هنا

وأبي قال لنا: مزِّقوا أعداءنا

اليهود أعداء إلى يوم الدين لا سلام معهم

ملعونة المؤتمرات، ملعونة الاتفاقيات، ملعونة المعاهدات

فأيديهم تقطر بدماء آبائنا وإخواننا

سرقوا أرضنا ودهسوا عرضنا

فجذوة الحرب لن تنطفئ

أغلق" أحمد" التلفازَ بعد انتهاء البرنامج السياسي الذي اختُتِم بمقال عن خارطة الطريق (٤)، أحسَّ بنفسه يتشظى، فكلمة المتشددين قصمته إلى نصفين. ساعة كلاسيكية

(٤) تعتبر "خارطة الطريق" هي الاسم الذي تُعرَف به خطة السلام الأخيرة في الشرق الأوسط، أُعِدت الخطة بواسطة ما يعرف باللجنة الرباعية الدولية، التي تضم الأمم المتحدة والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا، استنادا إلى رؤية الرئيس الأمريكي "بوش" التي أوضحها في كلمة ألقاها في ٢٤يونيو عام ٢٠٠٢.

تدعو خارطة الطريق إلى بدء محادثات للتوصل إلى تسوية سلمية نهائية على ثلاث مراحل، من خلال إقامة دولة فلسطينية بحلول عام ٢٠٠٥. وتضع خارطة الطريق تصورًا لإقامة دولة فلسطينية ذات حدود مؤقتة بنهاية العام ٢٠٠٤، وبعد الالتزام باتفاق لوقف إطلاق النيران، سيتعين على السلطة الفلسطينية العمل من أجل قمع الفلسطينيين الثوار، أما إسرائيل سيتعين عليها الانسحاب من المدن الفلسطينية وتجميد بناء المستوطنات في الأراضي المحتلة. [موقع: ويكيبيديا، عنوان المقالة: منظمة التحرير الفلسطينية].

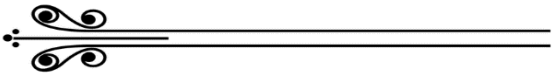

عملاقة يتدلى منها بندول نحاسي يتحرك بانتظام، ويد تحتضن كوبًا ساخنًا من أعشاب اليانسون، الشراب المهدئ للأعصاب.

على منضدة صغيرة ترقد رواية قرأها مئات المرات عنوانها "لصوص الليل" لآرثر كوستلر، الرواية التي أثرت فيه بشدة، تدور أحداثها في تلال الجليل.

كان يتخيل نفسه بطلًا في الرواية، يسير في شوارع الحليصة ويتسلق ذلك السفح حتى يصل إلى شارع ضيق تقبع فيه بعض أشجار السرو، التي تنحني لتمد أغصانها فتصنع مظلة للمارين.

انتبه على صوت والدته تناديه:

- أحمد.

دلَفت إلى حجرته ووضعت كوبًا من الحليب ليتناوله، لكنه امتنع بلطف قائلًا:

- لا أحتاج إليه مطلقًا يا أمي، فقد شربت للتو أعشابًا مهدئة، اشربيه أنتِ فصحتك تسوء.

- يا ولدي الحليب مفيد لك، وجهك شاحب وجسمك هزيل، حتى أكلتك ضعيفة، الحليب سيمنحك القوة ويساعدك على النوم باسترخاء، وأنا شربت منذ قليل.

رفع إليها عينين تحتشد فيهما الدموع وينزوي فيهما خزي وقلة حيلة، ليُقبِّل رأسها من دون كلمة واحدة، كان شعوره لحظتها حزينًا.

لا يحق لأحد أن يقول لك ما هو المهم وما غير المهم، عليك أن تعاين الأمر وتعايشه أولًا قبل أن تقرر.

***

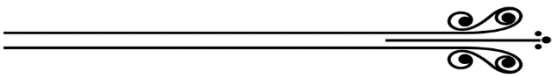

ألقى الليل سِتره على الأرض، ليلُفَّها بظلامٍ وسكون.

ناولته قِدحًا من الشاي الساخن وطبقًا جانبيًّا رصَّت فيه بعض فطائر الجبن التي تعدها بمهارةٍ عالية، تضيف إليها الزعتر الذي يجعل رائحتها وطعمها مميزًا.

همست بحنو:

- أنصِتْ لأمك يا ولدي، واسمع مني، خذ عني فكل ما أقوله لك خبرة سنواتٍ عُمر طويلة.

ضحك "راغب" ممازحًا لها:

- من يسمعكِ يظنكِ عجوزًا لها من العمر مئة عام، لا تزالين صغيرةً يا راضية.

- العمر عمل يا ولدي، فقد تعيش عمراً يُقاس بأعمار وقد تموت دون أن يتذكرك أحد.

هزَّ رأسه بلا مبالاة يريد إنهاء الحديث، لكن أمه تابعت في وَجَل:

- لا بد أن يكون لك هدف يا ولدي وأن تسعى إلى تحقيقه، لا بد أن تنصُرَ الحق وتنشر العدل وتتعامل بالمرحمة، كنْ رفيقًا بأهلك، راعيًا لشقيقاتك حانيًا عليهن، فأنت سندهن وملاذهن، كنْ قويًّا حتى تُقَوِّي عزيمتهن فلا تصرعهن الحياة، كنْ حماهن وملجأهن إن آوَينَ إليك.

قرابين التطهير

استفاق على جلبة وضجيج، فرك عينيه، وقد انشقَّت الأرض عن مجموعات كبيرة، كأنها حربٌ ضروس، قتالٌ وعراكٌ يدور هنا وهناك، ملك الموت يجثم على الصدور، يسحقُ أجسادًا كانت تدبُّ فيها الحياة منذ قليل، لكنها استوفت عدَّتها من الحياة، لترحل غير مأسوفٍ عليها، فلا بواكي للقتلى هنا.

الوجوم يعلو الوجوه، والتوتر يكسو قسماتها، ومن يغادر لا أحد يشعر به. الأحلام لا تتحقق وحدها، الكوابيس تستطيع ذلك.

لم تدع له الرهبة براحًا ليفكر أو يفهم ما يحدث، فالخوف يمخُر عباب قلبه، كل ما يشغله الآن الفرار من هذا المصير المرعب، انعقد لسانه وعلا صوت أنفاسه، هربت الدماء من عروقه وتجمَّدت أطرافه وأيقن أنه هالك لا محالة.

الحرس يقفون عند التلال يأمرون الجند بمداهمة من تبَقَّى وسَحقهم سحقًا، تلفَّت حوله في وجوم وقلق يبحث عنها فلم يجدها، يتساقط القتلى من كل مكان جثثًا وأشلاءً ممزقة، اشرأبَّ عنقه وهو يحاول استطلاع الأمر خلف صخرة احتمى بها ونزف جبينه ماء عرقٍ غزير.

تكاثرت السحب في السماء وازداد لونها قتامة مُنذِرةً بهطول مطرٍ غزير، ابتلَّت الأرض وسرت قشعريرة في الأبدان تخرج زفراته قلقًا وخوفًا، حتى إذا بَحَّ

الصوت وسكن الموت وحضر الفَوْت، تقدَّمت منه صاحبته باسمة وهي ترى الفزع في عينيه، وقد انخلع قلبه وسرت رجفة في جسمه، كل ما فيه مرتبك وكل ما فيها ثابت.

حدَّق إليها بفزع وصاح:

- ماذا يحدث ؟

لكنها لم تجبه واكتفت بإشارة أن يتبعها، ركضت فظلَّ يركض ويركض خلفها والرياح تشتد قوةً وهزيمُ الرعد يصعق الآذان، كان الجو شديد البرودة وخطوط البرق تشقُّ عباب السماء. فَرَك كفَّيْه يستمد منهما دفئًا مفقودًا، تلقَّفته السماوات، يحتضنه قلبها وتُخبِّئه بين طياتها، تغلق عليه أهدابها.

قادته إلى حيث مكان آمن، دلف إلى الداخل معها عبر البوابة بقلق وتابعتها عيناه بتردد. يبدو أنه مسكنها، بناءٌ ضخم له ثلاث بوابات كبيرة، قاعة فخمة ثم ممرات كثيرة تؤدي إلى غرف متفرقة، كل شيء أبيض كالثلج وروائح عطرية تعبق المكان، والبهو الرئيسي شديد الاتساع.

كمن أُلقيَ في غياهب جُبٍّ تاهت عنه السيارة فلم تستطع التقاطه، كان كذلك.

دلفت إلى إحدى الغرف الجانبية، جلست مسترخية على حشوة بيضاء كالشمع حتى شَقَّت كلماتها صمت انتظاره، ثم همست مطمئنة:

- لا تقلق فذلك موعد "قرابين التطهير".

نظر إليها متعجبا وردَّد:

- قرابين التطهير ؟!

ابتهجت لولَعِه بمعرفة كل شيء وأجابته بابتسامة اجتاحت شفتيها:

- نعم. في مملكتنا لا مكان للكسالى والعاطلين، نحن أمة العمل. في مجتمع النحل يُتخلَّص من ذكور النحل الذين صاروا عبئًا على المملكة، يُضحَّى بهم حتى لا يُلوَّث المكان وتكثر المخلفات، فيُقضى عليهم ثم تُطهَّر الخلايا كلها وتُنظَّف استعدادًا لموسم تزاوج جديد تتكاثر فيه الأنفس وتتزايد الأعداد.

اندهش لثقتها.

نقرت نقرتين تستدعي الشغالات، اتسعتْ عيناه ذهولًا وهو يطالعهن كيف يقمن بعملهنَّ بجهد حثيث.

نادت إحداهن وكان اسمها "سلوى"، فتقدمت بود تجيبها:

- أمركِ سيدتي.

كانت تخالسه النظر بين فَيْنة وفَيْنة، مرت أمامه غير قاصدة لفت انتباهه، لكنها أثارت في نفسه الحنين، اللهفة على الزمن الجميل.

راقَهُ اسمها وشعر تجاهها بألفة عجيبة، لاحظتها هي لتقدم له بقية الشغالات، ربما كنَّ ثلاثة بالتمام، وها قد بدأ بينهم الكلام.

أومأت إحداهن برأسها:

- مرحبًا.

التقطت "شهد" طرف الحديث:

- هذه سُلاف وتلك جنى، هنَّ رفيقاتي أيضًا، أما سلوى فهي مربيتي.

ربتت على كتفها ومنحتها ابتسامة حب مُغلَّفة بالامتنان.

- ما رأيك فيما يؤدونه من عمل بهمة ونشاط؟

كنَّ دؤوبات لا يتوقفن عن التنظيم والترتيب ببراعة، أثار ترتيبهن ونظافتهن إعجابه ودهشته وأثنى على نظامهن الرائع:

- تبارك الرحمن، سبحان من أبدع وصور، لم أرَ في حياتي مكانًا أروع ولا أجمل من هنا!

المعتاد أن الشغالات أغلبهن طويلات اللسان ناقلات للكلام مُطَّلعات على عورات البيوت ومُفشيات للأسرار، إلا من رحم ربي.

اختتم خاطرته بتلك الجملة حتى لا يأثم، لكنه هنا رأى صورة مغايرة من جهدٍ وكدٍّ وتفانٍ في العمل، تذكَّر أنه لا يعرف اسمها حتى الآن فسألها عنه.

داعبته ضاحكة:

- هل تسابقني ؟

سابقته، ليلحق بها في أرض اللقاء، حيث المكان يشهد على حبٍّ طاهرٍ وُلد في محرابٍ قدسيٍّ كفيلٍ بتغييره وحَقيقٌ عليه الإصلاح ما استطاع.

وليسمع أجمل اسم عرفه في حياته "شهد" [٥].

(٥) شهد، سلوى، جنى وسلاف: من أسماء العسل.

شهد عمر الصوالحة

حلوة الملامح وضَّاءة الوجه مليحة الطلة، عيناها اللوزيتان تُضفِيان عليها جمالًا هادئًا، لكن الضيق يكسو ملامحها ويعتريها قلقٌ تعجز عن البوح به، لا عن ضعف، بل عن شفقة وعطف. حدس الأنثى بداخلها كان يخبرها ولكنها كانت تتجاهله مرة وتُكذِّبه مرات.

جدار كان يرتفع بينهما يومًا بعد يوم، كلما أوشك أن ينقض أقامته تصرفات "راغب" ولا مبالاته المستمرة.

تنهدت طويلًا قبل أن تتحدث:

- الفرق بيني وبينك يا راغب أنك تبحث عن غربة، أما أنا فأبحث عن وطن، الوطن دقة قلب، رفة رمش، الوطن نبض العروق، حانٍ كضمة أُم، دافئ كحضنها، باسم كوجه السماء، الوطن له امتداد سحري وإن كنا بعيدين عنه، الوطن دفء وإن كنا في صقيع غربة، ما أصعب أن تحترق بالوطن قبل أن تحترق بالغربة!

مزدحمة هي بالتفاصيل، جذور الوطن، سهوله، جباله، تلاله، أنهاره، صحاريه وأراضيه، كله يقبع في ذاكرتها شبرًا شبرًا وذراعًا ذراعًا. الحب آفة القلوب، ماذا لو كان الحب ثورة؟! العشق انكسار الأقوياء وهزيمة الأبطال، ماذا لو كان العشق وطنًا؟!

كتَّفَ "راغب" ذراعيه ونظراته نحوها مستنكرة مشفقة لائمة، قال بنبرة يائسة:

- لا جدوى مما تفعلينه، ألا ترين قوتهم ونفوذهم في كل الدول والمنظمات العالمية؟!

مال برأسه إلى الوراء وسحب شهيقًا طويلًا كأنه يستعد لإلقاء جملة ثقيلة، ليستدرك:

- هم تقريبًا صُنَّاع القرار والمسيطرون بمالهم ونفوذهم على كل شيء، حتى مصائرنا، أنتِ تناطحين السحاب!

مطت شفتيها وواجهته باستغراب ساخر:

- والمطلوب منا الانبطاح، الاستسلام وإعلان الولاء التام!

رد باترًا جملتها:

- لا، لا أقول استسلامًا أو انبطاحًا يا شهد، بل أقول فقط علينا أن نعرف وضعنا وحجمنا الحقيقي.

حدقت إلى الفراغ، في بؤبؤيها وطنٌ ولا أرضَ سواه، ثم قالت بنبرةٍ خاويةٍ استوطنها الألم:

- لا تستخدم نون الجماعة من فضلك، فلتتحدث عن نفسك فقط.

ثم استكملت بنبرة مفعمة بالاستنكار:

- الهوان لن يصل إلى قلوبنا ولن تتحول أحلامنا إلى كوابيس ما دمنا نسعى إلى تحقيقها، علينا العمل، "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة"، هذا ما أُمِرنا به، أما النجاح والنصر والتمكين فهو توفيق من الله واستكمال لآياته وحكمته في الخلق، مأمورون نحن بالزرع والغرس، أما الإثمار والحصاد فعلى الله.

هز كتفيه بغير رضا، فرمقته بنظرة غاضبة فيما هو عاجز عن مجاراتها في أفكارها، ارتكزت نظرتها عليه ليرجع به الزمن في تفاصيل حياته التي عاشها وأب يفر من الثأر من بلدة إلى أخرى ومن قرية إلى غيرها.

عاش حياة الخوف والقلق من كل شيء، من الجيران، من الأصحاب، من الأصدقاء، من المدرسين والبائعين. عاش غريبًا وظل غريبًا في كل مكان، عاش خائفًا وظل خائفًا من الجميع. القلق كان رفيق دربه والخوف صاحبه الوفي. أول الحكاية وآخرها، خوف! المقدمة والخاتمة، خوف! القارب الذي طالما أغراك بالسفر يَبيت كل يوم وهو يخشى الغربة.

قاطعت أفكاره وعيناها لا تُخفِيان الازدراء:

- عمومًا يا راغب، أنت لست مجبرًا على الدفاع عن قضية لا تهمك.

قالتها وهي تحمل الإجابة عن كل ما دار في رأسه ورأسها من تساؤلات في خلال المدة السابقة، ولكن بقي الوضع على ما هو عليه.

اتسعت عيناها وتابعت بغضب مكتوم:

- لتترك الجهاد لأهله.

اتسعت عيناه بصدمة جزع وغضب:

- ماذا تقولين يا شهد؟!

ارتسم على وجهها تعبير هزلي:

- أقول ما تخجل أنت من قوله.

بُهِتت ملامحه وارتعشت عيناه وهو يلقي عليها نظرة أخيرة قبل أن يرحل في صمت كئيب، وهي تشيعه بعينين كليهما يأس وقنوط.

***

- أوَتدرين يا راضية، ما يبدد الوحدة ويذيب شقاء الأيام؟ إنها لمَّة العائلة، تلك الجذور التي تثبت في أعماق الأرض، فيثبت أفرادها راسخين فيها، لا تهزمهم الخطوب ولا تنال منهم الحياة ولا تباعد بينهم المسافات. العائلة حضن دافئ يذيب الجليد، قرقعة أكواب الشاي بالحليب، صليل الملاعق ودوي الصحون، إلحاح أم بتناول مزيد من هذا الصنف من الطعام، التفافهم حولها وهي تنقش كحك عيد الفطر أو تصنع الفتة وصواني الرقاق في عيد الأضحى، تحشو القطائف وتسقي البسبوسة والبقلاوة بشراب العسل، تنظف المطبخ حتى ينقصم ظهرها لكنها تعي أن تعبها في جلي الصحون معناه أن البيت فيه من الخير الكثير وأن وجبة دافئة معناها أن لمة العائلة لا تعوض.

لم تكن تتذمر من شغل البيت على الرغم من رقة الحال وضيق ذات اليد، تطبخ اللقمة وتحمد الرزاق على النعمة، تجلي الصحون وتشكر الوهاب على عطاياه، تكنس البيت، تنظف الحوض وترتب الأسِرَّة، تثمن النعم وتشكر المنعم وتدعوه بتتابع الخيرات (٦). وحينما حضر ولدها، حروف تحتضر على فمها وكلمات ترتجف لا تريدها أن تنفجر، نشيج بدأ وتسلل في ضعف وقلة حيلة. لم تجادله، فلا يجدر به أن يكون بطلًا في هذه الرواية، لكنه للأسف كان البطل، مكدس بالأنانية، بالسلبية وبالنرجسية، البطولة شرف لا يستحقه.

(٦) مقتبس من مقال د. شيماء هشام سعد.

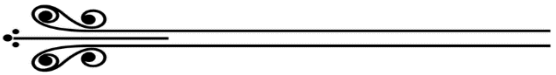

مرر أصابعه بين خصلات شعره وزفر بضيق يجاوبها:

- الوقت كان ضيقًا يا أمي، لم أستطع التحدث مع أي من أساتذتي.

تنهد بقسوة وأردف:

- الامتحانات على الأبواب والجميع منشغل بها صدقيني.

عقدت حاجبيها هاتفةً باستنكار:

- يا سلام! ألهذه الدرجة طوال الوقت الجميع مشغول؟!

اقترب منها بود وقبل رأسها يحاول تهدئة غضبها:

- أعدك أن أعيد المحاولة غدًا.

أشاحت بوجهها في عدم رضا.

- لقد مللتُ وعودك وسئمت أعذارك الواهية.

لمست وجنته بحنان مستعطفة:

- هي أختك شقيقتك، ليس لها أخ سواك، هل فهمت يا ولدي؟! هي تحتاج إليك، تحتاج إلى رعايتك وحنانك ومن قبلهما اهتمامك.

ابتسم بحنان يمازحها ويقبل رأسها من جديد:

- حاضر يا راضية، أقسم لك أن أفعل.

وصال الأحبة موصول وإن لم يلتقوا، فالأرواح جنود مجندة لها مدارجها ومسالكها، تتجاور فيها مع من تحب، ويصير حديثهم موصول وإن بدا بلا وصل، أما الغرباء فمفترقون ومفارقون مهما تجاوروا، حديثهم منقطع وإن بدا موصولًا.

سلوى

تلك التي احترفت القوة في حين يعج الكون برجال ضعفاء، تقف بثبات فيما يلهث الجميع خلف السراب، متمردة هي على الألم في حين يصرخون هم من الوجع، تنظر بكبرياء وشموخ في حين يجرون أذيال الخيبة، تصنع لهم خبز الحياة ويسقونها كؤوس المر والعلقم، تعزف لهم أنشودة الرضا والصبر ويتراقصون هم على نغمات الذل والقهر، تلك التي تاقت إلى النور في حين أنهم يوصدون الأبواب ويغلقون النوافذ.

قبل يدها وشرد بعيدًا فكلمات الحب هنا مختزلة أدراجها دومًا في فعل لا قول. سألها مهتمًّا:

- كيف حالك؟

كانت مبتسمة برضا وهي التي تنظر إليه دومًا برضا:

- الحمد لله.

ضحكة صافية انطلقت من صدر "سلوى" بعد مداعبة خيري إياها، كانت سلوى كـ"راضية"، طاهية ماهرة وربة منزل محترفة، تطبخ طاجن البامية باللحم الضاني وتعد المحشي والبط والملوخية بمهارة، تدفن همومها في مطبخها لتصنع الصبر طعامًا والرضا شرابًا

واليقين حساء، تبث العجين أمانيها، تقربه من قلبها فيتناغم مع نبضها، فتفرغ شحنة الحزن داخلها كأنما غُمِست في نهر من السعادة غمسًا.

نهضت "سلوى" من فراشها ليلًا لاهثةً تستغفر فقد كان كابوسًا، ما رأته أقسى من أن يحتمله قلب كقلبها على شاطئ نهر مظلم مياهه سوداء، كانت تقف خائفةً مرتجفةً وطفل صغير يقف على حافة النهر، وهي تناديه بأعلى صوتها: "راغب، ارجع"، لكنه لم يستجب، كان يسير صامتًا لا يلتفت، فنادت بصوت أعلى: "عُدْ يا راغب"، لكنه لم يستجب، فكان عليها أن تتحرك لتنقذه لكنها فوجئت بقدميها مغروستين في طين أسود. فصرخت بصوت أعلى: "لا تتقدم وعُدْ إلى هنا يا راغب!"، لكن الولد التفت إليها بابتسامة شاحبة، لكنها مصرة على استكمال الأمر والمضي قدُمًا، فسار خطوات أخريات حتى ابتلعته أمواج البحر السوداء، ليغرق كل شيء في عتمة حالكة.

استيقظ "خيري" فزعًا، وقبل أن تمتد يده إلى المصباح استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وبدأ يُهدِّئ من روعها بعد أن ناولها كأسًا من الماء.

- خير، خير بأمر الله، وإنني امرأة منقوعة في الصبر حتى إذا أتت عليَّ الدنيا بما فيها أدير لها ظهري. كل ما أخشاه أن تكون أنت إحدى خسائري الفادحة، أخشى أن تجمع لي الدنيا ولا تكون أنت فيها، أو تكون هزيمتي الكبرى.

طلع الصباح على سلوى بعد ليلة لم تذُق فيها للنوم طعمًا، متململة في فراشها، تجمعت عليها الهموم والأحزان فحالت بينها وبين الاطمئنان، تحمل همها وهم عائلتها والهم الأعظم كان شقيقها.

أغلقت الباب خلفها، وقد وضعت صينية الطعام على الطاولة، توجهت نحو "خيري" الممدد على الفراش، انحنت وقبلت جبينه بلطف وهمست:

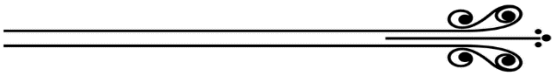

- التلاميذ في انتظارك.

وكان عنوان الدرس: مذبحة (دير ياسين) يوم التاسع من نيسان ١٩٤٨.

تنهدت تنهد المحزونين، فتلك أوجاع العابرين لا تزال تحرق صدورنا أجمعين.

***

- عنترة بن شدَّاد الشاعر العربي الذي كتب دواوين الشعر والغزل في عبلة، وخاطر بحياته لأجلها ثم خانها مع أكثر من ثلاثين امرأة وتزوَّج عليها.

ضحك "عمرو" حين ألقى "أحمد" على مسامعهم تلك المعلومة وهم يتحدثون عن الحب، قادهم الحديث من الحب إلى الخيانة.

لامست عينا "راغب" اللوحات المُعلَّقة على الجدار، واستعرضتا الزوايا ثم انزلقتا على الستائر وتلكَّأتا هنا وهناك في منزل "عمرو"، كان منزلًا بسيطًا لكنه يضُمُّ عددًا كبيرًا من الصور واللوحات، فهواية والده التصوير.

رمقه "راغب" بنظرة عميقة، فكم أعجبته اللقطات التي صوَّرها والده وجمعها في لوحات فنية.

- ما رأيكم في كتائب الأقصى وحماس والجهاد الإسلامي؟

سألهم راغب.

- رأيي أن العمليات الفدائية التي ينفذونها أرهبت العدو ولا تزال.

كان هذا رد عمرو.

- تاريخ السياسات الإسرائيلية التوَسُّعية الهادفة إلى طرد السكان الأصليين يوضح أن الصراع المحتدم بين الفلسطينيين والمستوطنين اليهود كان جوهره دائمًا الأرض والمياه، هذه الأفكار وتاريخها يُوثّق اتجاهات القمع والطرد والمصادرة لدى اسرائيل، ويكشف بالتفصيل عن النزعات التوسعية الكامنة في التيارات الصهيونية العُمَّالية وفي التيارات الدينية واليمينية على حد سواء، وهو ما يوضح تزايد العمليات الاستشهادية.

كان هذا تعقيب "أحمد" الذي بدأ يعرض لهم عبر جواله مقطعًا قديمًا بثته قناة (CBS) الأمريكية، الذي تُدُووِلَ على نطاق واسع وحصد ملايين المشاهدات، كان الفيديو لشابين فلسطينيين "عودة وائل" و"أسامة جودة" من قرية عراق تايه شرقي مدينة نابلس، اللذين كسر بعض الجنود الإسرائيليين أيديهما، واستمر المقطع لمدة لا تقل عن نصف ساعة يعملون على تكسير عظام الشابين، والأمر كله كان تعليمات من "إسحاق رابين" وزير الدفاع الإسرائيلي، ثم اختفى الشابان اختفاءً تامًّا، ما أثار ضجة وقتها لما في الشريط من جرأة مرعبة، اشتعلت بعدها القرى والمدن في الضفة الغربية وقطاع غزة بالمظاهرات، لتتسع الانتفاضة ويتزايد التعاطف العربي والغربي معها. كان الجندي الإسرائيلي يكتب على خوذته، وُلِدتُ لأقتل الفلسطينيين. (٧)

(٧) القصة حقيقية، وتنصح الكاتبة بمشاهدة فيديو تكسير العظام على جبل نابلس.

يخمور

استمرًا في السير، ظلَّ يتبعها داخل ممراتٍ كثيرة تعلو درجات وتهبط دركات، هبطا وديانًا وصعدا تلالًا، حتى ولجت قاعة كبيرة اندفعت داخلها، اتجهت يمينًا حتى ضاقت الممرات وهو يلاحقها أينما ذهبت، كان معها كظلِّها، انتبهت لخطوات تتعقبهما فالتفتت مُستطلِعة بقلق، فوقع بصرها عليه.

كانت الغيرة تأكل قلبه، يتلظَّى بنار الشوق ويعجز عن تفسير التغيُّر الذي حدث لها، قرَّر مواجهتها بالأمر فيما يَرمُق غريمه بنظرات تَقطُر حقدًا وغلًّا.

- ما بك يا يخمور [٨]؟ ولمَ تتبعني؟ أتراقبني؟!

انفلت زمام صبره فاقترب منها، وصاح مشيرًا إلى الآخر الذي كان يسابقها منذ قليل:

- مَن هذا؟ ولم تهتمين به هكذا؟

اجتاح وجهها حمرة الغضب:

- وما شأنك أنت؟!

---

(٨) يخمور: اسم ذكر النحل.

- أنا...

احتلَّت القسوة قسَمات وجهه وأردف:

- أنسيتِ ما بيننا، أنـ..

سكت ولم يكمل، كان له مع عينيها عهد، وليست كل العهود تُوَفَّى، وليس كل الحب يستحق الوفاء.

جاهد وهو يتلعثم معاتبًا:

- كنتُ رفيق دربكِ وسيد قلبك، أم تراكِ تبدلتِ فتخليتِ ؟! صبرتُ كثيرًا على هجركِ الجميلِ ظنًّا أنكِ تمُرّين بمحنة ما، أما وإني أراكِ تضيعين مني فلن أسكت ولن أقف مكتوف اليدين، سأقاتل في سبيلك، سأدافع عنكِ حتى الرمق الأخير.

بعض الخيبات قاتلة إن كانت ممَّن نحب، وبعض الخذلان ساحق إن كان من المقربين.

دفعها بعنف بالغ كاد أن يخلَّ بتوازنها، ثم أمسك بها بقوة أوجعتها حتى كادت قبضته تحز في كتفها.

- كيف وقلبي يتألم وأنا أراني في جفنيكِ أتقلب، ومن قلبكِ أتدحرج، لأسقط في بئر الشقاء ؟!

رمى الخوف بسهامه فأصاب قلبه واستبَدَّ به القلقُ والهمُّ، فربما بينهما قصة حب وهو لا يدري.

كان قد أحكم عليها قبضته، فطال ألمها وطالت قسوته، حاولت منه الفكاك ونجحت أخيرًا في فض الاشتباك، ألقمته بكتلة شمع واشتعلت عيناها غضبًا ثم تحركت، لتكون في مواجهته مرسلة إليه إشارة تحذير شديد اللهجة:

- حذارِ من غضبي، ابتعد عن طريقي يا يخمور.

وسلام على أرض المحبة كل حين، مرتحلٌ أهلها رَيْب الظنون.

كانت عيناه تلمعان بغضبٍ عظيم، فهو يرى سر تغيرها نحوه، إنه ذلك الضيف القادم من عالم آخر. أما هي فلم تكن تبادله أي مشاعر، هي الأميرة وهو أحد الرعية.

ظلَّ يرمقها بنظرة لوم وعتاب وفي قلبه تنوح الذكريات الباكيات، دار على عقبيه عائدًا أدراجه جارًّا أذيال الخيبة والخزي الكبير، أما هي فمضت بثقة وثبات، وسرت الطمأنينة في نفسه وهو يراقبها ترفل في عباءتها كملكة متوجة وقد نفضت التعب عن وجهها، تبعها وقد ازداد شغفه بها.

ها هو القدر قد جمع بينهما بعد حين، فما كان منه سوى همس بالحنين:

- انتظري أميرتي.

استدارت لتعلن بفخر:

- بل الملكة يا راغب.

بدأ الفضول والدهشة ينهشان خاطره، إنها المرة الأولى التي تذكر فيها اسمه، خبط بكفِّ يده على جبهته قائلًا:

- لقد كدت أنسى اسمي.

ضحكت وهمست له:

- أما أنا فمُحال أن أنسى.

ابتعدت كأنها تتلحَّف برداء الهيبة والوقار، ران عليه صمت طويل وجلسَ شاردًا، خلَت الأرضُ إلا من السماء ومنه، أما هي فكانت تقف في خشوعٍ تراقبُ البحرَ اللجيَّ من بعيد.

صوت الهدير والرياح تتراقص بخفة ودلال تداعب أوراق الشجر، القمر يضوي على استحياء، بدا الكون بديعًا.

زخَّات متعاقبات تطل من السماء هتونًا رقراقًا يداعب بحنُوٍّ سطح الأرض بتناغم عذب، تتبعثر قطراته هنا وهناك، لكن الليل يرسل دائمًا أنينًا خافتًا مليئًا بالذكريات.

الموج الذي كان يمخُر عباب البحر، موج كالجبال أيقظ فيها مشاعر وجلب له مزيدًا من الحنين.

هناك

تَرقد مُدِّيَّة مُسَنَّنة داخل علبة ورقية تتكئ بارتياح على قطعة قطنية بيضاء اللون تتوسَّدها وتتمدد عليها، استلَّها برعونة وغادر مسرعًا، تحَيَّن قدوم الظلام، ليقتنصه ويثأر لقلبه.

الصراع الذي اشتد بين عقله وقلبه والألم الذي احتبس داخل صدره كان كفيلًا بإشعال ثورته. قرر أن ينتقم، باغته بسلاحٍ حاد، نصله يلمع كسيفٍ مسنون وانقضَّ عليه ليداهمه، طَوَّقه من الخلف بقوةٍ كادت تفصل رأسه عن جسمه، لتشل حركته في النهاية فيما تشبَّث المهاجم بظهره، وبدا صوته كفحيح أفعى يهدر في أذنه بغلٍّ وحقد:

- لترحل من هنا سريعًا أيها الصرصور.

- ماذا تريد مني ؟! أنا لم أتعرض لك بسوء.

- وهل تمثل عليَّ البراءة الآن ؟! فلتلعب لعبة أخرى.

- دعني وشأني، ففيَّ ما يكفيني من هموم، وما يثقل كاهلي من أوجاع، وما يعتصر روحي من آلام. كيف بي وأنا في تيه بلا وجهة، ضباب وسراب كلما اقتربت منه حسبته ماء، حتى إذا أتيته لم أجده شيئًا.

- لن أتركك حتى أقتلك وأستريح منك.

- اتركني أيها الوغد.

قالها وهو يحاول الإفلات من قبضته، فأحكم الأخير عقدة زمامه حتى كاد السلاح أن يحزَّ عنقه، وبالفعل نزف قليلًا من جرح صغير، فأصدر صرخة ألم محمومة، استجمع قواه، ليطيح بالآخر ويقذفه بعيدًا، وقع بصره عليه فعرفه:

- قل لي، ماذا فعلت؟

فلكل منا ملحمة مريرة، لكل منا حكاية مختلفة التفاصيل، لكن مرارتها واحدة تزيد وتنقص، تعلو وتهبط، تكبر وتصغر، وكل ما علينا إكمال المسير ولو فقدنا البوصلة وضاعت من بين أيدينا الخارطة.

مرت لحظات عصيبة وهو يتخبط في حيرة وخوف شديدين، كاد يسرع بالفرار حتى استوقفه ما أدهشه، كان وجهه أسودَ داكنًا، تفوح قسماته بشراسة وعدوانية، استشرف الخطر الذي ران عليهما بظلال من صمت حذر وشر مستطير. ثوانٍ ثقيلةُ الوقع على نفسيهما معًا، المهاجم والمدافع عن نفسه، كلاهما ضحية، قرأ في عينيه ما لم يُفصِح به لسانه، وأدرك أن هناك سرًّا يحفظه بين طيَّات فؤاده.

تسارعت دقات قلبه يستشرف خطرًا مُحدِقًا به، شحب وجهه وتسمر مكانه بعد لطمة عنيفة تلقاها فأفقدته توازنه، طاح جسمه وارتطم بأرض الحجرة، وقع السلاح من يده، وندَّت من عينيه دمعة حزن حاول أن يداريها بكفه، فنظر إليه "راغب" واستشف من عينيه كسرًا وضعفًا، هو يحبها ويكتوي بصدودها عنه حتى صار هشًّا ضعيفًا تسُوقه نزعات الغضب فتَتأجَّج الغيرة في نفسه.

بصعوبة شديدة بدأ يسترد أنفاسه وهو يشعر بدوار حاد، انصرف، ليتحسس "راغب" رقبته فعلق في أنامله دمه النازف من جُرحٍ تركه له قبل رحيله، قضى ثُلثَي الليل وهو يفكر في ما حدث وجافى النوم عينيه.

يعيش في عالم آخر، عَصِيٍّ على الفهم والتأقلم معه، رجفة غريبة سرت في جسمه لم يعرف أهي من نسمات الفجر أم من الخوف الذي توغل في صدره قبل قليل، إن شيئًا مروعًا يحدث في داخله، هو الذي ظن أنه قوي وأنه يمسك زمام الأمور، صار كورقة في مهب الريح لا يملك من أمر نفسه شيئًا.

كوحدة يونس في بطن الحوت وقد اجتمعت عليه ظلمات ثلاث بطن الحوت والبحر والظلام، من غربة إلى غربة ومن وحشة إلى وحشة ومن ملجأ إلى منفى، راح يفكر فيم حدث، وما السبب الذي يستدعي قتله بهذه الطريقة؟ وهذا المجهول الذي يعيش فيه ويصبغه الظلام، وتسارع نبضات قلبه المتلاحق كأنها في سباق محموم.

نظرات "يخمور" وكلماته التي تطن في أذنه كأنها نصال حادة، القساوة التي كانت في عينيه وعباراته الملتهبة من قلب محترق بنار الهجر.

كل ذلك عصف به، وجعل رأسه يدور حتى أوشك على السقوط، كانت على شفته كلمة أوشك أن يصبها في أذن "يخمور" قبل أن ينصرف لكنه عجز عن النطق بها. توضأ واستعد لصلاة الفجر، فحين فقدَ جناحًا ولم يحصل طوال رحلته على ريشة واحدة، ضاقت عليه الأرض بما رحبت فلجأ إلى أبواب السماء.

بعد عدة أيام التقت نظراتهما للحظات، حاول "راغب" الحفاظ على رِباطة جأشه، بل حاول أن يبدو طبيعيًّا ما استطاع، لكن ابتسامته الواسعة ضاقت وتصبب العرق غزيرًا من جبهته، فكر في الانسحاب لكنه عاد وصمم على البقاء.

- لن أغادر المكان قبله، لن أهرب.

(۲)

راغب

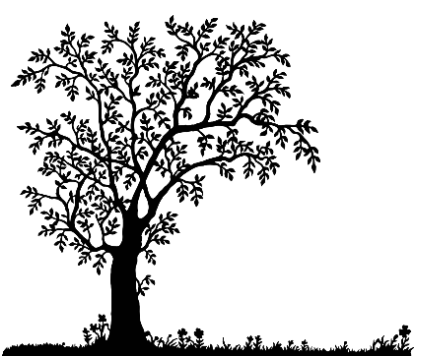

مرت الأيام وكل يوم له شأن، مرت بخاطري هذه الذكرى، في يوم بارد كنت أجلس في غرفتي الصغيرة أدرس علومي، كنت أرشف قطرات من كوب الشاي الساخن أمامي، تذكَّرتها وأنا أتابع قطرات المطر تسير في خطوط متعرجة فتسيل على زجاج النافذة، جاءني ضجيج عربة في الشارع، ضغط سائقها مكابحها فجأة فتوقفت بصخب، أصغيت لأتبين هل صدمت أحدًا، وحين لم تصلني ضجة ثانية عُدت إلى مذاكرتي.

بعد أن صارحتني "شهد" باستحالة إتمام الأمر بيننا فنحن مختلفين تمامًا، قالت:

- راغب، أنا في وادٍ وأنت في وادٍ آخر، لن يصلح الأمر.

أجبتها:

- ولِمَ؟ ربما يكمل أحدنا الآخر.

فهزَّت رأسها نافية ومضت تشُقُّ سبيلها.

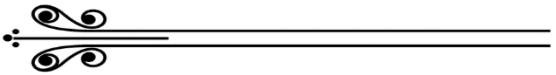

كان أملها حد اليقين، وكان يأسي حد القنوط، وجود "شهد" في حياتي كان نقطة تحوُّل، كنت أرى كل شيء حولي خاليًا إلا منها، الطرقات والشوارع والميادين والحارات، الشوارع تشعر بنا، تبادلنا الحديث، تمنحنا أذنًا مُصغية كي نبوح.

الذكريات تتناثر فوق سواد الليالي، ليالٍ تحمل تفاصيل الحاضر والماضي وأمنيات المستقبل، فلنحتفظ بها ولندَّعي الحكمة ولا نُبالي. البدايات البيضاء طاهرة مُفعَمة بالود، لكنَّ خرق القلب اتسع ولا راتق له، نفرت دمعة ساخنة من عيني، مسحتها سريعًا وادَّعَيْت تجاوز الأمر.

***

طقس صحو وواقع يُبِيح التكرار وقد يفرضه، أدَّت ركعتين وسلَّمت وأخذت مصحفها تُرتِّل في موضع صلاتها بصوت لا يتجاوز غرفتها، أما هو فرضِي بالهامش واستقرَّ فيه.

طاولة خشبية تتأوَّه تحت رزح الزمن بأثقاله عليها حتى وهنت فتآكلت أطرافها، تحمل الخبايا والحكايا والأسرار، طاولة هرِمة كأصحابها.

اتجهت إلى الطاولة التي سبقها إليها، إنها أمُّه "راضية" ومشهد مألوف، يتناول فطوره ويرحل بلا كلمة واحدة، في حين هي تُشيِّع ذهابه بنظرات خاوية ودعوات ظنَّتها يومًا خائبة.

الطاولة التي خلت إلا منها لتشاركها فيها بعد مدة قصيرة ابنتها "جنى"، لا شيء يتغير، الشمس تشرق كل صباح، اليوم أربع وعشرون ساعة، ولا يزال هو أنانيًّا نرجسيًّا ولا تزال هي راضية.

كانت تعرف قصة "أسماء" ابنة الصديق التي كانت تشحذ عزيمة ابنها للقتال كأم قوية لا ترضى لولدها الفرار من المعركة، فقالت له: "إن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن كنت على الحق، فما وهن الدين وإلى كم خلودكم في الدنيا؟! القتل أحسن"، فلما قال لها: "لست أخشى القتل، وإنما أخاف أن يُمثِّلوا بي"، قالت: "ليس بعد القتل ما يخاف المرء، وما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها".

شخصية قوية صنعتها الأحداث وبلورتها المأساة، استقامت برتابة امرأة مكسورة تُلَملِم أشلاء حزنها، لتواجه زوجها الذي استيقظ للتو، وكان أحد كثيرين من الذين داست الدنيا عليهم بقسوة، وأول ما يفعله كل صباح بعد وضوء واستغفار وصلاة- أن يُلقي نظرة على حبَّة القلب وقُرَّة العين "سُلاف"، التي تتلقَّفه بلهفة فتُمرِّغ وجنتَيها على اتساع صدره.

- صباح الخير والبركة.

تتشبَّث بعنقه تتشمَّم رائحته وتحبسها داخل صدرها.

- أشتاقكِ جدًّا.

قالها كأنما يُغازل محبوبته.

الطمأنينة قد تكون شخصًا، قد تكون عائلة، الطمأنينة أب وأم كنبع حنان يتدفق.

***

يوم الجمعة نستيقظ فيه على رائحة البخور تعبق البيت كله ومبخرة أمي العتيقة تحصننا بالرقى والأذكار، ولسانها دومًا رطبٌ بذكر الله، تلهج بالدعاء وتغمس عيشتها بالرضا، "راضية" التي تصحو مع أديم الصباح ومطبخها الذي تسكنه قِدرة الفول المدمس ورائحة الخبز الطازج الذي كنا نتلقفه من يديها ساخنًا فنتقاسمه بلهفة ونتقاسم معه الضحكات،

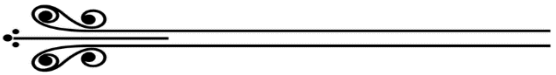

صوت الشيخ "الطبلاوي" قبل صلاة الجمعة يذكرنا بصوت الشيخ "محمد رفعت" في مغرب رمضان، ليالي الصيف في الشرفة مع أقداح الشاي وأريكتها الوثيرة في الركن القصي أمامها منضدة القهوة تنتظر مجلسها مع أبي لتنصت باهتمام لكل حرف يتلوه عليها، لا تتطلع إلى شيء ولا ترغب في شيء سوى سعادة أولادها.

أمي التي كانت تغزل الصبر فتَحيكُه معطفًا يرتديه أبي كل صباح، ويعود في المساء قدماه منقوعتان في الشقاء يخلع خفي الرزق، فتنسج أمي رداء اليقين وتهدهد الرضا لتصنع لنا منه خبز الحياة.

***

كان الهواء باردًا، ولم تزل رائحة الشتاء تتسلل إليه وصوت المذيع يهدرُ عبر الراديو يعلن أنها تمام الخامسة، موعد نشرة الأخبار.

- كم أكره نشرات الأخبار وما تحمله!

قالتها "جنى" بسخط، خفق قلب "سلوى" شقيقتها، فلا يستطيع أحد أن يحمل الأخبار السيئة كما تحملها تلك النشرات.

تجد المذيع وهو يرتدي بزة أنيقة ويحكم وثاق رابطة عنقه بشياكة، في حين يتلو على مسامع الخلق حصاد الشر وضرس العلقم، من مات ومن جرح من اعتقل ومن بات مطاردًا، لا شيء يسُر.

تذكرت يوم تقدم لها "خيري" خاطبًا، لم تكن تريد الزواج فبكت، عادت في ذلك اليوم من عملها، لتجد أمها قد رتبت البيت ووضعت زهورًا. على الرغم من بساطة معيشتهم، فإن الحس الجمالي كان مرتفعًا.

"خيري" يكبرها بعشرة أعوام، لكنها توسمت فيه خيرًا عندما رأت ابتسامته الطيبة وبساطته المتناهية، كان عطوفًا يهتم بها وبكل تفاصيلها، كأنها كل دنياه، يشاركها فقط تلاميذ مدرسته بكتبهم وأقلامهم وحقائبهم المدرسية، استطاع أن يسكن قلوب الجميع، فحين يتحدث، يتحدث بثقة وعقلانية، لا يُسفِّه رأي أحد ولا يضجر من طلب أحد.

كانت "سلوى" مختلفة عن كل النساء، مختلفة في نظرتها إلى الأمور، مختلفة في تفسيرها للمشاعر والتعبير عنها، كأن لها عينين غير أعين الناس وقلبًا غير قلوبهم وعقلًا غير عقولهم، مولعة هي بالأمومة فتمارس طقوسها مع إخوتها حتى يأذن الله لها بولد، تتوق إلى سماع كلمة ماما وتنتظر فرج المولى.

هو يشعر بتوتر في معدته، فابتسمت بود وهي تقدم إليه أنتينال ومعه كأس ماء. ابتلع حبات الدواء وابتلع معها قلقه، فهتفت:

- سلامتك، شفاك الله وعافاك.

- سلَّمكِ المولى من كل شر.

كانت تتابع جلسات "سلاف" مع الطبيبة وتتابع رسوماتها المبهرة، لقد تقدمت في كل شيء وتستجيب إلى كثير من التمارين والتطبيقات. ألقت جملها كلها بشأن "سلاف" دفعة واحدة في وجهه وهو ينتظر أن يستمع إلى تقرير طبيبتها هي عن الحمل.

أخفضت صوتها وانخفض معه حماسها لتردف:

- الطبيبة قالت إن كل شيء على ما يرام، هي فقط مسألة وقت ليس إلا.

شهد

تضمُّ بيدها جهاز التحكم في التلفاز، تَطوي القنوات طيًّا، ولا مستقر، فجميعها ما بين برامج سخيفة أو أفلام هابطة، وثَمَّة شعور بملل يستحوذ عليها، توكَّأت على أحلامها وهي تفكر في ما جعل حياتها باردة هكذا منذ تركت وطنها وأهلها وراء ظهرها وأتت لتدرس الطب في جامعة القاهرة. استقامت أخيرًا وتحركت تلتقط جهاز التحكم بالتلفاز، لتطفئه بتأفف.

وبعد أن كانوا ملء العين

سقطوا في غمضة عين

وبعد أن كانوا ملء البصر

رحلوا في لمح البصر

كنهاية حتمية أو رصاصة رحمة في سُنَّة الحياة

وهي تلك الأنثى التي صمتها منطق، فكرها ثورة وعقيدتها وطن، ترضى بالأمر الواقع، بل أحيانًا تروض الخيال، تريد أن تتخير لأبنائها أبًا صالحًا، فالخضوع نصف نجاة وهي تعلمت أن نصف الثورة موت، وقضيتها لا تحتاج إلى صراخ وحناجر، "قضيتنا تحتاج إلى رصاص وبنادق، فالسلام مع العدو خيانة، ومع المنافق كذبة أنيقة، ومع الصديق نعيم مقيم".

اختتمت جملتها التي دونتها في مذكراتها كما تفعل كل مساء.

تفتح كتابًا بين يديها، وبين ضفتيه تتجول عيناها كأنهما ضفتي حياة. كان مقطع منه عن صابرا وشاتيلا، المذبحة التي وقعت في مخيمي صابرا وشاتيلا واستمرت ثلاثة أيام متواصلة على يد مجموعات من اليهود في الجيش الإسرائيلي وحزب الكتائب اللبناني وجيش لبنان الجنوبي، تحت قيادة "أرئيل شارون" و"رفائيل إيتان"، أما قيادة القوات المحتلة كانت تحت إمرة "إيلي حبيقة". راح ضحيتها آلاف الفلسطينين عقب اغتيال "بشير الجميل" رئيس لبنان الذي أراد عقد صفقة سلام مع إسرائيل.

احتلت المرارة حلقها فنظرت إلى صحن طعامها بلا شهية، كانت تحرك الملعقة فيه دون هوية. تمنت لو كانت فتاة عادية ككل الفتيات، تمنت لو كانت ساذجة بلهاء لا تعرف في السياسة شيئًا، ولا تلوي على شيء، فتاة لا تكتب سوى ما ينقص خزانتها من ملابس وأحذية وحقائب، ولا تقرأ إلا مجلات الأزياء وآخر صيحات الموضة ولا تتابع النشرات الإخبارية، بل تتابع المسلسلات الدرامية. لكنها كانت مزدحمة بالتفاصيل، حتى كوب الشاي لم تكن لتتناوله قبل أن تعبقه بأوراق النعناع الأخضر وأعواد القرنفل.

غزت أنفها رائحته، أنَّى لها بكوب شاي ساخن الآن؟!

وهو ذاك الظل الباهت الذي تصدعت روحه فاستمد صلابته منها، كان على حافة اليأس فالتقطته، ارتعدت فجأة كأن برودةً قارسةً احتلتها، أغمضت عينيها قليلًا لمقاومة البكاء. تذكرت حين ذهبت ذات صباح إلى حيفا قادمة إليها عبر طريق القدس، منذ غادرت رام الله في ذلك النهار وكانت ضيفةً على صديقة لها، هاجمتها الفكرة بضراوة لم تدَعْ لها مجالًا لتردد أو انسحاب.

انهالت على رأسها الذكريات، كل ما رُوِيَ لها ثم ما شاهدته بعينيها تَدافَع فجأة، حيث كانت الحقول تتسرب على جانبي الطريق والشمس تلتهب بحرارة صيف يكاد يشتعل،

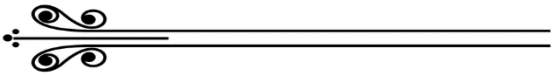

السيارة التي اقترضتها لتسافر وتشق طريقًا نحو الشمال لتتسلق مَمَرًّا ساحليًّا نحو مدخل حيفا الجنوبي، كانت المزارع تفترشُ أحد جانبي الطريق، في حين أن البحر على الجانب الآخر تَهدِرُ أمواجه تستصرخها للقاء.

اغتصبت ابتسامةً حزينةً وهي توقف محركَ السيارة أمام البناية وتهبط بِرَوِيَّة بعد أن صفعت بابها وراءها وثبَّتت نظرها نحو شرفتها تاركةً المفاتيح تُخَشْخِش في راحتها بغير اكتراث، عبرت الشارعَ ثم الرصيف واجتازتْ بوابة حديدية ثم صعدت الدرج، يافطة خشبية كُتِب عليها اسمه، إنه عمها الذي بَقِيَ في حيفا بعد أن تعاون مع جنود الاحتلال مقابل أَمْنه وأمانه.

وضعت إصبعها على زر الجرس، كانتْ أناملُها ترتجف وصوتُ دقاتِ قلبها قد فاق دقات الطبول وطلقات المدافع، خطواتٌ بطيئةٌ ليُقَرقِع المِزلاج بصرير معتاد وينفتح الباب، سيدة عجوز تقف قبالتها، ظلَّت جامدة في مكانها لا تعرف ماذا تقول! سألتها العجوز بريبة:

- من تريدين؟

كان صوتها نائيًا يلوح مثل حفيف الأقمشة.

تمتمت بخفوت:

- أنا شهد عمر الصوالحة.

شهقت المرأة حين عرفت هويتها، فهي ابنة أخي زوجها "عثمان الصوالحة"، الذي كان حديث الصحف والبرامج مدة طويلة، اتُّهِمَ بالجاسوسية والخيانة وأُهدِر دمه من قِبَل عائلته.

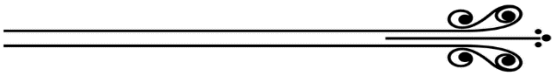

ابتسمت العجوز بخِزْي محزون ثم صافحتها ببرود وأفسحت لها طريق الدخول، لتتبعها "شهد" بخطواتٍ بطيئةٍ مترددةٍ وربما نادمة، بدا لها المنزل باردًا خاويًا، كانتْ تنظرُ إلى كل شيءٍ تحاولُ استكشافَه.

استقَرَّتا في غرفة استقبال بسيطة تحوي عدة مقاعد متهالكة وطاولة صغيرة، لمحت عليها كتابًا عنوانه "زوربا اليوناني" وعلى الغلاف صورة للمثل "أنتوني كوين" ويداه محلقتان في واحدة من أشهر الرقصات التي صورتها السينما.

استوقفتها صورة مُعلَّقة على الجدار تجمع أعمامها وجدَّيْها وبعض الصغار، عرفت وجه والدها الطيب الحنون، ورأت عمها وابتسامته الصفراء كما كانت تقول دائمًا عنه، وقع بصرها فجأةً على لوحة أخرى لشهادة جامعية نقَّبَت فيها بعينين زائغتين، لتقرأ اسم عمها "عثمان الصوالحة".

نظرةٌ كرمحٍ خفيٍّ إن سددته بسرعة أصابَ كبد الحقيقة، تلك كانت نظرتها ويدها التي كانت تطوي ورقةً فيها استدلال أُرسِل إليها، ليقلبَ مشاعرها لجناح طائر طريد يقاومُ حريقًا وتحته الأرض يكسوها الرماد وتعبق برائحة الموت.

كانت العجوزُ قد استقرت على مقعدٍ تنظر إليها بابتسامة فاترة، كأنها تُطالِبها بتوضيح سببٍ للزيارة:

- أنا سميرة زوجة عثمان.

بدت المرأة محتارة كيف تفسر لها الوضع، ويا للغرابة! الأجدى، كيف تبرِّر لها ما حدث؟! جاء صوتها ضعيفًا مرتبكًا خافتًا:

- لقد مات عثمان.

رفعت إليها "شهد" عينين لائِمتَين مستنكرتين:

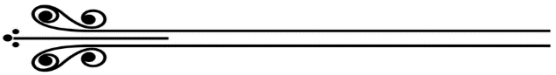

- مات؟!

ابتسمت المرأة بمرارة وهي تجيب سؤالًا لم يُطرَح.

- مات منذ ثلاثة أعوام بعد أن كان حبيس الدار عشرين عامًا، لقد قضى خمسة أعوام في سجون الاحتلال، وحينما رفض التعاون معهم، أطلقوا الشائعات، بل زيفوا بعض الأوراق والرسائل ليثبتوا عليه تهمة التجسس. حاولنا كثيرًا أن نوضح الحقيقة، لكن الأمر كان قد حُسِم وأُهدِر دمه، فبقينا هنا في حيفا ملطخين بالعار، نحمل إثمًا لجريرة لا ذنب لنا فيها، وقد سدت الدنيا مغالقها في وجوهنا.

خَيَّم صمتٌ ثقيلٌ حتى قطعته "شهد" بسؤال هذه المرة:

- أليس لديكما أبناء؟

إن كان السؤال خفًّا فالإجابة كانت جبًّا عميقًا!

أشارت بالنفي، وردَّدت بهدوء امرأة مكسورة:

- لم نرغب في أن نُنجِب أطفالًا ليكبروا ويحملوا عارًا لا ذنب لهم فيه أيضًا.

انتابها غضبٌ مهيض، وانكسر جانب فمها باستهزاءٍ خاوٍ، فبدأت تحرك عينيها في المكان ثم استقرت نظراتها فوق وجه العجوز لتقول:

- لقد حصلتُ على العنوان قَدَرًا من خلال أحد أساتذتي الذي كان يجري بحثًا في موسوعة تاريخية عن المدن الفلسطينية، ولفت اسم الصوالحة انتباهه فأخبرني به.

التفتت حولها لتكمل:

- ولم أكن على علم بوفاته.

لم تتناول "شهد" رشفة واحدة من قهوة "سميرة" التي أعدَّتها، لم تتهيأ كفاية للمحنة التي انتظرتها، هي ليست على يقين بوجوب الصفح عنه أو إيجاد مبررات لما فعله، فبعد الموت لا شيء يبقى، وعلى فراش الموت لا بد من دفن كل شيء مع الميت. ترى ما قيمة التوبات المتأخرة؟! أجد أنها لا قيمة لها على الإطلاق، هذا إن وُجِدَت أصلًا، كلها تخمينات.

استطالَ الصمتُ بينهما حتى ظنت أنَّ لا نهاية له، فتولَّت راحلة من دون كلمة واحدة، فكرت كثيرًا في أثناء عودتها، ما الذي دفع عمها "عثمان" إلى أن يفعل ما فعل وما هي المُغريات التي حصل عليها. توقَّفت قليلًا وقد خطر لها هاجس للتو، لِمَ لا تكون تهديدات لا مُغريات؟ ربما تعرض لضغوطات أو تعذيب لم يحتمله، ربما كان متماسكًا ولم يبِع نفسه، لكنه في النهاية بشر ولم يتحمل.

تنهدت وهي تنظر إلى الطريق، فهي تعرف أساليب التعذيب الجسدي والنفسي التي يتعرض لها المعتقلون، لم تكن خاطرتها مفاجِئةً لها، فكم فكَّرت في أمر عمها وأنه النقطة السوداء التي تلوث بياض صحيفة عائلتها.

كانت تُفَتِّش في ذكرياتها عن سبب كل ما حدث، عن الوطن الذي يستحق أن نضحي بأرواحنا فداءً له، أن نحمل السلاح لندافع عنه، أن نكون عزه وشرفه.

ثمن الخيانة

الخيانة ثمنها الموت.

الخيانة ثمنها البتر، وهو أشد وأقسى.

الصدمة تلك التي تفجعنا بعد حقيقة مرة قاسية عايشناها ورأيناها رأي العين، فما يكون منا إلا نكرانها، نسيانها، محوها من ذاكرتنا وربما سحقها من ذكرياتنا، طيها وإلقاؤها في جب عميق أو حفرة مظلمة.

بعد رحيلها ارتمت "سميرة" على أقرب مقعد تبكي، فقد هيجت زيارة "شهد" الذكريات عليها، تذكرت "عثمان" الذي لم تنسه لحظة واحدة، كان حزينًا كأبواب الأقصى، رقيقًا كنسمة باردة، صافيًا كدمعة طفل، خفيفًا كريشة حالمة، لم يكن إنسانًا عاديًّا، فلو كان مثل الجميع لتركوه ولما فعلوا به ما فعلوه. لقد رفض، قال لهم: "لا"، وكلمة "لا" ثمنها باهظ، حتى لحظة انسحابه البائس من الحياة كان في قمة ثباته.

عشرون عامًا ونحن ننتحر كل يوم، كنت ألومه كثيرًا على صمته، وقد جنت الحياة من حولنا حتى خُوِّن الأمين واستُؤمِن الخائن وكنت أعود فأعذره، بل ألتمس له سبعين عذرًا.

عشرون عامًا انطفأت فيها زهرة شبابي، هرمتُ قبل الأوان، حتى من قاسمونا الخبز وشاركونا الحزن والدم تغيروا وتنكروا، بل تجبروا. الأب الذي تبرأ مني، الأم التي لعنتني والأخ الذي أهدر دمي. مات من مات ورحل من رحل، وبقينا أنا وهو نتدرب على النسيان كل يوم.

***

في طريق عودتها طفقت تمرر الأحداث برأسها وما حُكِيَ لها عن المأساة وعن عمها.

ماهرون نحن في إسداء النصح وإعطاء الحكمة حين يتعلق الأمر بالآخرين!

كانت المدينة تلمع أحجارها تحت شمس الصباح، تمر بشوارعها فتتنشق رائحة الزعتر والخبز الطازج وتستمع إلى صوت المؤذن وباعة الفاكهة الجائلين، متاجر عديدة تعرض الزهور والخضروات والتوابل.

حين عبرت باب العمود المؤدي إلى المدينة القديمة بقنطرتها ذات البرجين وأرضيتها الحجرية والأسوار المحيطة بها التي تبدو مخيفة من ضخامتها- تذكرت حكايا والديها عن بيتهم القديم، وكيف أُجبِروا على الرحيل وهُجِّروا من المدينة.

وحكَتْ لهم جدَّتُها ذات مساء:

- إن جنود الاحتلال أجبرونا على ترك قرانا قسرًا وقهراً، علقت كل واحدة منا مفاتيح بيتها في عنقها، فكان يتردد قرعها كل حين كأجراس الكنائس. كنا نسمعها ونبكي ولوقع ارتطامها صوت حزين، وكلما ابتعدنا عن قرانا تصاعدت أصوات المفاتيح أكثر. كنا نتوقف على سفح التلال نشاهد قرانا مشتعلةً بالنيران، القرى التي احتُلَّت وأُخرِجنا منها عنوة، حتى إذا خمدت النيران أطبقت علينا عتمات الدنيا كلها، عتمة الضياع وعتمة

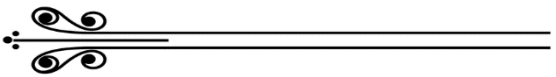

التشريد، عتمة الخوف وعتمة التيه. كنا نرتجف من البرد والخوف والقهر، يعصف بنا الضياع ويُطبِق الشتات على أرواحنا، وأملنا في العودة إلى ديارنا لا يبرح صدورنا، لكن الأيام مضت والأعوام تعاقبت ولم نعد. سرنا من قرية إلى قرية، كلما ضاقت بنا الأرض التي لم تستطع أن تطعم آلاف المهجرين أو تأويهم، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. حتى أصبحنا لاجئين، لا مأوى ولا مكان يسع أعدادنا، فكانت المخيمات وكان الإيواء وكنا نحن اللاجئون. وكلما فعلنا شيئًا ما تتردد أصوات المفاتيح التي في صدورنا لتذكرنا ببيوتنا التي تركناها، وصوتها يشبه النواح الحزين.

الانفصال

القلق يعلو وجوه أهل المملكة والحزن عالق بالصدور، وذكرياتهم في كل ركن من أركان المملكة، همسات وهمهمات في كل مكان والدموع عالقة بالأهداب، ازدادت الأعداد وتكاثرت الأنفس فصار لزامًا عليهم الانفصال.

يُحكَى أن:

قانونُ غابٍ قد فُرِض من الطغاة

واستسلم القطيع فلا سبيل إلى النجاة

فالكل كبَّلَه الخضوع وأصبح الصراخ ممنوعًا

أما من عصى وتمرد فمِن حياته يتجرد

أو يُخفَّف عنه ويُطرَد من الحِمى ويُشرَّد

صاح "اليَعْسُوب" صيحة زلزلت أركان المكان، في حين كانت الملكة "فيرومونا" تجلس على عرشها:

- مولاتي، ماذا سنفعل وقد ازدادت الأنفس وتكاثرت الأعداد ولم تعد تسعهم الأماكن ؟

قالت الملكة بصوت هادر:

- لا بد من الرحيل.

الملكة "فيرومونا" قررت أن تجمع الرعية الجدد وتنتقل بهم إلى مكان أرحب، تاركة ملكة جديدة تتولى عرش المملكة، إنها الملكة "شهد".

اجتمعوا في الساحة أمام ديوان الملكة، فقد بدأ "وقت الانفصال"، الشمس تطبع قبلتها على الأرض، لتُضيء شرفاتِ القصر، وتملأه بهجةً وإشراقًا.

صاح "اليَعْسُوب"، ليجتمع الرعية، وقد أصغوا السمع إلى مليكتهم.

- اتْلُ علينا النبأ يا يَعْسُوب.

- بأمر الملكة فيرومونا ملكة البلاد، نعلن مراسم الانفصال، فليستعد الجيل الجديد للرحيل مع مليكته إلى أرض أخرى.

همسات وهمهمات تصاعدت، فأشارت بيدها وأردفت:

- لا تقلقوا يا أبنائي، ستسير الأمور على ما يرام، القوانين التي تحكمنا لن تتغير، لا مكان بيننا للعاطلين والكسالى. من يتعدَّ حدود الله بشُرب مُسكِر يُطرَد حتى يتوب وإلا قطعنا رجليه، كل التحية والتقدير لبناتنا العاملات، أعانهن الله ووفقهن لما يحب ويرضى.

وانتصبت واقفة فسكن الجميع، وأشارت بيدها:

- فلنستعد للرحيل ولتبدأ بناتي في اختيار ملكة جديدة.

ابتسمت بطرف خفي وهي ترمق "شهد" تتألق وسط الحشود، فهي تُعِدها منذ زمن لهذا الأمر، ولكن لا بد أن تخوض شروط الاختبار حتى تصبح جديرة بلقب الملكة.

حملوا أمتعتهم وتقدمتهم الملكة في موكب مهيب، وقد أرسلت بعض الجند للاستطلاع والبحث عن أرضٍ أخرى يقيمون عليها مملكتهم الجديدة، وسار بعضهم خلف بعض، السهول الخضراء واسعة حولهم والحقول والبساتين تمتلئ بالأشجار والأزهار والحدائق خلابة.

منحت السماء بعض حنانها للأرض، لتلثم ثغرها حبًّا وعطفًا، اتجهت الأنظار إلى أميرة العذارى وهي تستعد لخوض المعركة، قفزت قفزة رشيقة، لتعبر نهرًا يفصلها عن ساحة النزال (وادٍ فسيح بين ربوَتَيْن). احتشدت الجموع فوق التلال والرُّبَى في صفوف متراصة، تقدمت "شهد" في خُطا مهيبة بدت واثقة من نفسها، وتقدمت منها واحدة من العذارى، ماجت الأشجار واهتزت الأغصان، ثمة رياح شديدة لا تدري أهي من الطبيعة أم من أجنحة تهدر فوق أرض المعركة ؟!

تلاحم وتراشق انتهى بالعذراء مكوَّمةً على الأرض وقد أغمدت "شهد" مقدمة رمحها في جسمها، لتُفرِغ السم فيه قليلًا قليلًا، ودارت الدائرة مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى انتهت الملكة الجديدة منهن جميعًا، وعلى ثغرها ابتسامة ثقة. استجمعت أشلاء روحها وتقدمت ببطء تنفضُ عن نفسها غبارَ المعركةِ كمحاربة منتصرة خرجت للتو من معركة كبرى وتقدمت لتُتوَّج ملكةً على البلاد، لكن عقلها شرد برهةً عن المشهد، فقد أُثقِلت بالهموم والأوجاع ومسؤولية جسيمة لمملكة عظيمة.

تقدم "خُشرُم" [٩] مُعلنًا الولاء التام للملكة الجديدة، ثم ولاء كل اليعاسيب [١٠].

حيَّتهم بحبور وجلست في صولجانها الجديد، بطلة مهيبة وابتسامة عذبة تُضيء ثغرها الوردي منحتها لـ"راغب" الذي كان يجلس في صمت وانبهار، كان يطالعها باهتمام مشوب بالذهول وبعض التوتر، لاحت على شفتيها ابتسامة انتبه لها "راغب" فبادلها الابتسام.

(٩) خشرم: اسم ذكر النحل.

(١٠) اليعاسيب: ذكور النحل.

الزفاف

بدأت المملكة تستعد لمراسم الزفاف الملكي الجديد بعد أن قضت الملكة "شهد" على كل منافِساتها في نزال شهده الجميع، وتُوِّجت بعده ملكة وآن الأوان كي تتزوج، فأقيمت الأفراح وزُيِّنَت الساحات وأُعِدَّت القاعات الكبرى لمراسم الزفاف، وتقدم "خُشرم" من ديوان الملكة، ليتلقى آخر التعليمات من مليكته بشأن حفل زفافها. كانت ترفل في غلالتها الوردية، تلقي عليها عباءة مفتوحة من الجانبين، تتداخل فيها ألوان الطيف كلها بروعة وجمال أخَّاذ، وفي المقدمة وعلى الأكمام تطريزات بديعة تزيد الثوب روعة فوق روعته، وتهادت كطيف شفاف عبر الساحة الكبيرة.

الروائح سرٌّ حَيَّر العقول والألباب، فالجزء المسؤول عن تحليل الروائح يقع بجوار مركز الذاكرة أو الحصين، وهو المسؤول عن تخزين الذكريات الطويلة المدى، وهو أيضًا الجزء المتصل اتصالًا مباشرًا بمركز المشاعر، لذا ترتبط بعض الذكريات بروائح معيَّنة نستعيد تفاصيلها كلما مَرَّت بنا، وهي أيضًا وسيلة عند البعض للتعبير عن رغبتهم دون كلام. وكل فَصيل له طريقته، الغزال مثلًا يُطلق المِسك من سُرَّته في موسم التزاوج إعلانًا عن رغبته، يشمُّ الذكر الإناث حتى يعثر على الرائحة التي يريدها فيُقرِّر الزواج بها.

أما في مملكة النحل، فتُطلِق الملكة التي تريد التزاوج روائحها المُمَيَّزة وعطورها الخلابة حتى تلفت انتباه الذكور مع الرقص والغناء بألحان عذبة، ثم

تبدأ في الطيران لمسافات بعيدة تُجهِد بها معظم الذكور، ومن يصمد إلى النهاية يُصارع بقية الرَّكْب حتى يفوز بالملكة ويكون الأقوى.

امتلأت ردهة القصر الملكي بالمدعوين، أما هي فقد افترشت أوراق الشجر واتخذت من الزهور والرياحين مُتَّكئًا، وبدأت العروس تتزين بعطرها الأخَّاذ، لتبدأ بالغناء طنينًا تشدو به يسحر الألباب.

كن معي

خلا الكون إلا منك فكن معي

تسمع نبض قلبي وأنفاسي

تُردِّد كالصَّدى آهاتي

تُعيد تلك النبضة الفارَّة من شرياني

تُعيد تقويم أيامي

حنيني.. أنيني.. صراخي

تحتويني كلي

تفهمني.. تصدقني

تدفع جبال الحزن عن قلبي

تنسف أحزاني نسفًا

فأنا أحتاج إليك

أحتاج إلى تأييدك لرفضي

قوتك لضعفي.. لمستك لجرحي

أحتاج إليك كلك

راعيًا.. حانيًا.. مقدرًّا

أحتاج فقط إلى أن أطمئن

كانت تسحره من حيث لا يدري، عرف معها معنى الحب، الحب الذي لا مكان ولا زمان يحويه، لا تسأل فيه: متى؟ ولا أين؟ أو لماذا؟ ولا كيف؟

كان بين يديها عصفورٌ يتعلم الطيران، وكانت بين يديه قصيدة عشق يعزف لها الألحان، كان محبوسًا في هواها وهي محبوسة بين ضلوعه، يحترق في زفراتها ويحيا بنظرة من عينيها وسأل نفسه:

- كيف دخلتِ عالمي؟! وكيف ثَقَب الحب فؤادي؟! كم مرَّ عليَّ وأنا هائم بك، هائم فيك، هائم معكِ؟!

كانت طائره الوحيد في قوافل الحنين، كانت به وكان بها، مريَمته وهو يوسفها.

- أخيرًا أنتِ هنا! لقد اختصر الكون مسافاته في هذه المساحة الصغيرة، حضنكِ يا مليكة قلبي حضنكِ وكفى، دثِّريني بقلبكِ وتلحَّفي حبي ولنتقاسم الحب والوَلَه، أنتِ حلمي الذي لا أود أن أستفيق منه، وطني الذي فارقت فاغتربت وثُقْت، أنتِ أماني وانتمائي، كحوت يونس إذ التهمه في ظلمات بعضها فوق بعض، فإن كان النسيان نعمة كما يقولون، فالتذكُّر نعمة أعظم.

فأي النعمتين يصلح حاله ويُقوِّم اعوجاج نفسه، أن ينسى ماضيه وما كان عليه من أنانية مقيتة وتردد مذموم، أم يتذكر كل شيء ليحاول إصلاح ما أفسده؟! ومتى كانت النعمة نقمة عليه حين تذكر ماضيه وبدأ يجلد نفسه بأسواط الندم؟!

الابتلاء الذي تعرض له جعله يتأمل ويدرك أنه رحمة من خالقه، لينشغل عن ابتلاء آخر أكثر وجعًا، وجلس شاردًا يفكر ثم أسلم جفنه إلى النوم.

الألم الذي يسكن قلبك ولا يغادر صدرك يبقى ساكنًا بين جوانحك، لا يغادرك، هو الحنين إلى من فَقَدنا وافتقدنا. ضرب جبينه بكفه:

- كم أنا أحمق! لم أفهم تلك الإشارات ولم أنتبه لتلك العلامات.

ودَّ لو عادت لتحادثه قليلًا، كان يشعر أنه كماريونت تحركه بخيوطٍ مُعلَّقةٍ بأطراف أناملها، تذكَّر عينيها اللامعتين وهما ترمقانه، التفاتاتها وهمساتها.

غمر الضوء المكان وغمره اليقين، شعورٌ جديدٌ بدأ ينساب عبر خلاياه، ذلك اليقين الذي يدفعنا إلى البقاء والاستمرار رُغم ما يحدث من تصاريف الحياة، يدفعنا إلى النهوض فيما كل شيء يجذبنا إلى الأسفل، ربما مرَّ بتلك التجربة لحكمةٍ ما، ليتعلم شيئًا ما وليعرف أمرًا ما.

تذكر على الفور تمارين اليوجا، إذ يُتدرَّب على تنظيم الأنفاس مع حركة الأجهزة الداخلية ودقات القلب وانقباضات المعدة ونبضات الدم في العروق، حتى تصير معزوفة نغم واحدة بإيقاع متناغم لا نشاز فيه، عندها تصفو الرؤية وينضج التفكير السليم والقرار السديد.

اتجه نحو الشاطئ وافترش الرمال الندية وارتسمت على وجهه أمارات السكينة والهدوء، مرَّ بذهنه ما حدث في خلال رحلته كأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًّا تَتتابع الأحداث فيه بصورة تلقائية. شعر أن كل شيء حوله يتنفس وتدب فيه الحياة، شعر بأنفاس كل شيء تتردد في كل مكان، وتمنى أن تطول به الحياة، ليعود إلى أرضه وأحبائه وليُصلِح كل ما أخطأه سابقًا.

تنهَّدَ عبر ذكرياتِه الجامحة التي كان يُقلِّبها بجنون، أطبق على بعضها ومرَّر البعض الآخر، لكنه توقفَ كثيرًا عند أخته "سُلاف"، ثم تنهد تنهيدة أطول من الأولى، كان يعض أصابعَ الندم لعزوفه وعدم مبالاته، وها هو خاوٍ من كل شيء إلا من عذابات الضمير.

أمه التي كانت عالمه ولو نفته الأرض وأنكرته بلادها، أمه التي كانت عطرَ أيامِه ونورَ ظلامِه، أمه التي كانت قمر لياليه وياسمينة حياته، أمه التي كانت بسمته في حزنٍ طويلٍ، وصموده في انهيارٍ محتملٍ، ورشاده في تيهٍ بعيد.

أبوه الذي كان الضياء بعد العتمة، والبهجة بعد الأُفول، والأَوْبة بعد الاغتراب، أبوه الذي كان دَوحة العطاء وبستان الوفاء.

شقيقاته اللاتي كنَّ فجر الأمل وينبوع السعادة.

أصدقاؤه الذين كانوا يخفِّفون وحشة الطريق ويزرعون الألفة في القلوب.

رفاقه وجيرانه، كل شيء دفعه إلى المقاومة وعدم الاستسلام، فاليأس نهاية الضباب الذي أحاط بذاكرته فاختبأ عن الأعين.

الحنين

مرَّت حياته أمامه كشريط سينمائي يسير ببطء وبأدق التفاصيل، قاده الحنين محمولًا على أجنحةِ الشوقِ إلى ماضيه، حتى أتى على ذكرى اعتصرت قلبه شوقًا وحنينًا، فتحَوَّل الحنين إلى شغف ولهفة وهو يتذكر أمَّه، وترامى إلى مسامعه صوتها الحنون:

- قم يا راغب، ستتأخر عن الجامعة.

يتمطَّى على فراشه ويضع يده على فمه مُنهيًا ثثاؤبًا تخلَّلته عطسة، ليتقلب في مخدعه تحت خِدر النوم الجميل، تحسَّس جواله يَسْتشِف منه الزمان والمكان، فأضاءت الشاشة بعقارب الساعة الثامنة ليُطفئها ويعود إلى أرض الأحلام.

إيماءة من رأسها وابتسامة شاحبة، على الرغم من عقليته الفذة وتفوقه العلمي، فإنه لا يحب الالتزام بأي شيء. همست بخوف وقلق وقد كان صوتها لا يكاد يصل إليه:

- الله يهديك ويصلح حالك يا ولدي.

في أثناء عودتها إلى المطبخ لتكمل الفطور، اصطدمت بابنتها الوسطى "جنى".

- صباح الخير يا أمي، طمئنيني، كيف حالكِ اليوم؟

ابتسمت الأمُّ وربتت على كتفها بحنانٍ قبل أن تجيب:

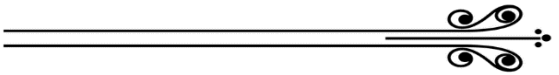

- الحمد لله يا ابنتي، اليوم أفضل بكثير، هيا أسرعي في ارتداء ملابسك حتى لا تتأخري عن الجامعة، وأطِلّي على أختكِ سُلاف، تفقديها ربما يضايقها شيء.

هزتْ رأسها في طاعةٍ وقبل أن تفعل أشارت إلى حجرة أخيها بأسف:

- هل لا يزال نائمًا؟! أتعجَّب والله من أمره! كل يوم يذهب إلى كليته متأخرًا، أمَا يكفيه أنه يعيش لنفسه فقط.

"راغب" الذي لا يهتم بأمر أحد إلا نفسه، لم يفكر يومًا في أسرته ولا أبيه وأمه ولا شقيقاته، يعيش لـ"راغب" فقط.

وهي ليست تلك المرأة التي تنام وتترك أولادها يستيقظون وحدهم ولو كانوا كبارًا، الدربكة الصباحية في فنون الاستيقاظ، رائحة الخبز والبيض المقلي وقرقعة أكواب الشاي باللبن، البحث عن الجوارب المفقودة والأحذية المحبوسة في أقصى شرفة في المنزل، ربكة الزحام أمام صنبور الماء، ودورة المياه المتنازع عليها من الجميع، صوت الشيخ "محمد رفعت" وقرآن الصباح.

ثم يفتح الباب مرَّات متتاليات، وكل مرة يأخذ قطعة من قلبها، وتظل تدعو الله بعد رحيلهم بأمانه وحفظه إياهم وتستودعهم الله الذي لا تضيع ودائعه. آذانٌ مُصغِيَة إلى الشيخ "الشعراوي" وتفسيره كتاب الله، ورحلة الصباح والظهيرة لكَدٍّ وسعي لا ينتهي. ذلك الصباح تحبه وتلك الظهيرة، تشكر ربها كل يوم فيها وتدرك يومًا بعد يوم أنها تحيا بضجيجهم، فاللهم لك الحمد.

حمدت ربها ومع خطواتها الأولى إلى المطبخ أكثَرت الدعاء لأولادها، وكانت تختصُّ الصغيرة "سُلاف" بصالح الدعوات. أَعدَّت إفطارهم وأخذت كوبًا من اليانسون الساخن لابنتها "سُلاف".

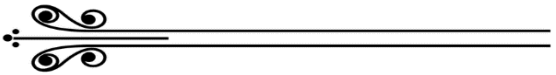

جلست بجانبها وهي تنظر إليها طويلًا وتمتم:

- كل ما أخاف عليه بعد رحيلي هو أنتِ يا حَبَّة القلب، أخاف عليكِ من الدنيا بعدي، من سيرعاكِ ويحنو عليك؟! من سيتفقدكِ كل وقت ويتحمل نوبات مرضكِ التي لا تنتهي ويكون رحيمًا بكِ ولا يقسو عليكِ؟!

شردت الأم وغامت عيناها، في حين ابنتها تلهو وتلعب كأن الأمر لا يعنيها.

رحل الجميع عن الدار ولم يبقَ سواهما، أمٌّ حزينة على حال ابنتها، وابنة لا تفقَه عن الأمور شيئًا.

حدَّثت نفسها:

ثم إني لا أخاف ابيضاض العين حزنًا

ولا أخشى فقد قميصٍ قد قُدَّ قَبْلًا

وقد مرَّت عِجاف تلو عِجاف

ولم تزدني إلا صبرًا

كل ما أخشاه أن تأتيني البُشرى

ولا يهتز لها قلبي رجفًا

فاروا الخطاطيف

كان "راغب" يسير في أرض المملكة بلا هدف ولا غاية، يعبر الطرقات ويجتاز الممرات حتى سمع جلبة تصدر من بعيد، كان يحاول استيضاح ما يحدث.

قاسية جاءته الضربة من الخلف، لم يستطع وهو يسقط على الأرض أن يرى صاحبها، ثم سقط في ظلام عميق، كل ما يتردد في أذنه جملة واحدة بصوت الملكة "فيرومونا" وصداها بصوت أمه "راضية":

"ترفَّع يا ولدي عن النزالات الصغيرة، فالملاحم الكبرى لا يصنعها سوى الأبطال".

كأنه يعيش حياة أخرى، يمشي ويتكلم، يأكل ويشرب، لكنه مكانه فوق الفراش.

"راغب" الذي كان صمته ثورة، واستسلامه عاصفة ونظراته الشاردة تأمل وتفكر، ظل في غيبوبته الكبرى فاقدًا الوعي والإدراك يومًا بعد يوم ولا يعي من حوله أي شيء.

كان الليل دامسًا فيما قطرات من السماء تنسكبُ فتسمع لها قرقعةً خفيفة.

اختبأ في كرم العنب بعد أن تسلل خفية حتى وصل إلى الطريق، قفز من السور الجانبي وسار على رؤوس أصابعه، توقفَ عند شجرة توت ضخمة، ليطل عليه حشد عظيم بدأ يزحف نحوه، كأنما الأرض انشقت عنه مرة واحدة.

استدار وأطلق ساقيه للريح، ظل يركض ويركض إلا أنه تعثر بغصن يابس فانكب على وجهه وارتطم جسمه بالأرض التي ملأت حوله صراخًا، وبدأ الهجوم عليه في كل بقعة من جسمه، رمح يغرز كأنه سقط في بئر سحيقة في حين ينزف دمه من مواضع متفرقة من جسمه، ولا تزال الكلمات تترى على مسمعه:

"ترفَّع يا ولدي عن النزالات الصغيرة، فالملاحم الكبرى لا يصنعها سوى الأبطال".

***

دبابةٌ تنطلقُ بأقصى سرعة نحو قرية صغيرة مسالمة كل ما فيها هادئ، الجميع منهمك في زراعة أفنية البيوت والأراضي التي حولها، الدجاج الذي تربيه الأمهات، الأغنام والماعز ترعى أول العشب النابت، مزرعة كبيرة والصغار أرعبهم هدير الريح وتراب الأرض الثائر تحت جنازير عجلاتها الضخمة وصوت محركها المحشو بالوعيد.

تبعثرت الأغنامُ حتى بدا جمعها مرة أخرى مستحيلًا، وتقافزت الدجاجات خوفًا وهلعًا، أما الصغار فاندفعوا فارين صوب بيوتهم.

فجأة، توقفت الدبابةُ صمت قاتل ينذر بهلاك حتى فتح برج الدبابة، ليطل "فاروا" برأسه [11]، ويعود مرة أخرى فتنطلق عائدة من حيث أتت.

---

(11) فاروا: عث مدمر يصيب النحل، ويسمى فاروا المدمرة، وهو فيروس يتغذى من النحل البالغ ويتكاثر وينتشر حتى يقضي على النحل تمامًا.

الخوف الذي أطل برأسه على القرية لم يتركها سوى لحظات حتى عاد مطاردًا أحد الصغار وأجبره على الوقوف.

أطل "فاروا" من برجه مرة أخرى، فتجمد الصغير، سأله:

- أين الملكة فيرومونا ؟

تفصد العرق من جبين الولد وأشار باتجاه قصرها وقرأ: "بيت ساحور" [١٢].

المصابيح ترسل ضوءًا باهتًا ينعكس متراقصًا على الأرض وسهلها الممتد شرقا. لمحَ رجلًا نحيفًا يرتدي قمبازًا بلون الحنطة [١٣] يحمل عصا ويلف حطة حول رأسه فوقها عقال [١٤]، حينما اقترب منه عرف أنه "خشرم".

بمجرد وصولهم أطلقوا على المدينة اسم (بلاد العدو)، وساقوا الرجال إلى معسكرات اعتقال ضخمة، عبثوا بكل شيء، وفي كل غرفة تحقيق سؤال واحد يتردد: "هل أنت معنا أم علينا ؟".

إنهم الخطاطيف والخفافيش يسرقون كل شيء، إنهم يسرقون حتى الكحل من العين.

***

(١٢) بيت ساحور: مدينة فلسطينية.

(١٣) القمباز: ثوب يرتديه أهل الشام وفلسطين.

(١٤) الحطة: وشاح فلسطيني يُلَف حول الرقبة أو الرأس مثل الكوفية.

كوحش طليق يجوب الممرات، يحطم النوافذ ويقتلع الأبواب، كان الغضب في صدره يبعثر كل شيء، يسحق كل شيء وبلا رحمة.

مع توقف المطر عن الهطول، استجمع "راغب" قواه الخائرة، خطا خطوات متثاقلات نحو الرواق الفسيح الممتد أمامه، تابع بقلب مضطرب وعقل مشوش. على بعد خطوات، وجد الجثث تملأ المكان أشلاء متناثرة هنا وهناك، كاد أن يتعثر كلما خطا خطوة واحدة.

في جنبات المكان الأسلحةُ ملقاةٌ على الأرض، سار بحذر أشد حتى وصل إلى ساحة كبيرة، كانت خاوية، ظل يركض ويركض حتى تصبب منه العرق وتسارعت أنفاسه وكادت أن تتلاشى. (١٥)

في المعركة اعرف عدوك.

في المعركة كل الأسلحة متاحة.

في المعركة احذر الخيانة من أقرب الصفوف.

في المعركة الضربات متتالية.

في المعركة اقتل ثم حاكم فلا وقت للمحاكمة.

في المعركة الانتصار للأقوى.

---

(١٥) في نكبة الثامن والأربعين، أقامت قوات الاحتلال الصهيوني معسكرات اعتقال تجاوز العدد فيها الآلاف، الذين استُغِلوا في السخرة لبناء الدولة الجديدة في إسرائيل.

شهد

حليب الانتفاضة

الدمع والشوق يتلاطمان في مآقيها، حين تذكرت غزة وبحرها الذي تعشق رماله التي تتوق إلى الحرية وتصرخ أمواجه ظمأً للحياة، بحر غزة الذي إن شربت منه شربةً لا ظمأ بعدها أبدًا، بحر غزة الذي إن غمست فيه غمسة عدت كيوم ولدتك أمك، كأنك لم ترَ شقاءً قط، بحر غزة، بحر العزة. غزة الأرض الصامدة بحكايا المُبعَدين ورملها الذهبي المعبق بجراح الأسرى، وتراب أرضها المعطر بدماء الشهداء.

تذكرت جلسات السمر مع العائلة في المساءات الطويلة حول الكانون المشتعل حبًّا ودفئًا في ساحة الدار، ولمة الأهل والأحباب والأب يحكي عن حليب الانتفاضة وقصة الأبقار. في أثناء الانتفاضة الفلسطينية الأولى سنة ١٩٨٧، دعت القيادة الوطنية الموحدة المجتمع المحلي لمقاطعة منتجات الاحتلال وإيجاد بدائل عن المنتجات الإسرائيلية، فأنشأت مجموعة من الناشطين الفلسطينيين مزرعةً لإنتاج الحليب والأجبان والألبان بالجهود الذاتية لبعض القرى الفلسطينية بثمانية عشر رأسًا من الأبقار. وما إن نجح "حليب الانتفاضة" حتى أمر الجيش الإسرائيلي بإغلاق المزرعة، معلنًا أن الأبقار خطرٌ على الأمن

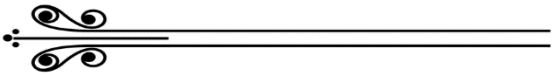

القومي الإسرائيلي. رفض الناشطون قرار الإغلاق، وأخفوا الأبقار مستمرين في إنتاج الحليب الفلسطيني.

هذه قصة مطاردة أقوى جيش في الشرق الأوسط لثماني عشرة بقرة.

الاحتلال يطارد الوطن في أعيننا، يحطمه في ضلوعنا حتى نركض فتاتًا إلى منفانا أشلاء في كل المنافي.

كانت المظاهرات النسائية منعطفًا يستحق التأمل، حين حاصرت قوات الجيش الصهيوني عددًا من رجال المقاومة من كتائب القسام، فخرجت مئات النسوة من كل بقعة في الأرض المحتلة، خرجن للتظاهر، كل واحدة منهن وقفت فوق المستحيل لتعبره وسحقت اليأس لتدمره بعزيمة وقوة إرادة، تترك ضعفها وخذلانها كما تترك خِدرها وأهلها، لتُلقي بنفسها في أتون المعركة، أعينهن مدججة بالنصر محملة بالقوة، يهتفن: "الله أكبر الله أكبر، قادمون، الله أكبر يا بيت حانون"، وكان حصار المقاومة في بيت حانون.

خرجت "شهد" في مقدمتهن تمسك بحبل اليقين وتستمسك بالأمل، حتى تتابعت التدفقات من جباليا والمشروع وبيت حانون.

اصطفت الصفوف تهتف في وجه قوات الاحتلال الصهيوني آملة في أن تخترقه لإنقاذ المحاصرين، لكن القوات بدأت بتحذيرهن ثم اشتعل إطلاق النار من رشاشاتهم ودباباتهم وطائراتهم.

الرصاص ينساب من كل اتجاه فيعلو صوت التكبير، سقطت الشهيدات والجريحات حتى استطاع رجال المقاومة -بعد أن وصل إليهم بعض ملابس النساء- التخفي وسطهن، وبذلك أُنقِذ رجال المقاومة وسط ذهول قوات الاحتلال.

راغب

بعد مظاهرات الجامعة، حوصِرنا في مبنى الكلية وألقت قوات الأمن القبض علينا.

خمسون يومًا قضيتها مع "أحمد" وبقية الشباب في المَحبَس، أُهدِرَت فيهنَّ كرامتنا وسُحِقت إنسانيتنا، حتى أنَّا تمنَّينا الموت ولم نحصل عليه، خرجتُ بعدها إذ أُجبِر والدي على توقيع أوراقٍ ليتركوني، ضمَّني أبي طويلًا وبدأ في نشيجٍ باكٍ.

الوخزات التي شقت صدر أمي كانت تصلني نزفًا وقهرًا، فما عادت تحتمل مزيدًا ورقدت في الفراش شهرًا كاملًا.

خلف النافذة كانت تقف "سلوى" تراقبُ الطريق عبر الزجاج تنتظر عودة الجميع، الأب والأخ والزوج، كان البيتُ معبَّقًا برائحة الطعام الشهي، أما "سُلاف" فكانت تجلس على كرسيها، تنتظر بشغف لترى آخر رسومها، أشفقت "سلوى" عليها وسألتها:

- هل جعتِ يا حبيبتي؟

هزت رأسها نافية:

- لا، سأنتظرهم.

حين مررتُ بالشَّارِع الذي نسكنه بدا غريبًا كأنني أراه للمرة الأولى، رأيت الشفقة ممتزجة بالحزن، ولا فرحة في أعين الجميع، وعند باب الدار كانت "سلوى" و"جنى" بانتظاري وعلى مقربةٍ منهُما "خيري"، وفي الخلفية تجلس "سُلاف" الرقيقة قابعة على كرسيها تنظر إلى الجميع.

وجعُ الأيَّامِ الذي تراكم على القلوب فاعتصرها، لكن تلك الأحداث مزَّقتني، عرفتُ بعدها كم كنتُ أحمقَ جاهلًا، فذئاب السجنِ لا ترحم، بل تغرز أنيابها في القلوب الغضَّة وتتركها تنزف، الضعف طبيعة بشرية لكننا كنا نقاومه، كنا نحاربه، الرسائل المُبطَّنة وغيرها الواضحة من الجهات الأمنية تحمل في طيَّاتها وعيدًا وتهديدًا، نصائح ذات أنياب تحثُّ الأب على ترويض ولده، لأنه يلعب بالنار، وأنَّ الأسرة جميعها باتت تحت المجهر، والدائرةُ تتسع لتشمل الجميع بالعقاب في إشارةٍ واضحة إلى شقيقاتي. هُنتُ كما هان كل شيء وضِعتُ كما ضاع كل شيء، من يلومُني من البشر وقد تحمَّلتُ ما لا يتحمله بشر؟!

حين دخلنا البيت تفقدوني بأعينهم الدامعة باحثين عن آثار تعذيب على جسمي، رأيتُ الحزنَ في وجوههم، الحزن الذي كان يقيم في بيتنا، وينام آخر الليل فوق فراشنا.

حَدَجني والدي بنظرة اختلجت عضلات وجهه لشدة حدتها، كانت أغلى أمانيه أن أُصبح طبيبًا، كان أبي رجلًا صالحًا يتعاطى مع الحياة من دون زيفٍ أو ضجة، يواجه الصعاب وحين يُعاني ضائقة مالية لا يتذمر، فالشدائد عنده حوادث تصنع الرجال، عقبات تتخلل حياتنا لا بد من تخطيها، كم تمنيت أن أكون مثله وأتحلى بزُهده وتواضعه!

أما أمي، فقد تحاملت حتى تترك الفراش كي لا أراها راقدة فيتعاظم الهمُّ على صدري، كان وجهها بشوشًا رغم شحوبه الملحوظ، كأنها كبرت عشرة أعوام، دمعي المخجول عانق صدرها حين ارتميت في حضنها، وقد لاحظتْ في عيني انكسارًا فاشتعلت

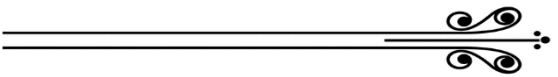

حرائق الغضب في ضلوعها، انخلع قلبها على حالي ولم يفتر لسانها عن التمتمة بخفوت "حمدًا لله". ظل الصمت ثالثنا، فطبعتُ قبلة على جبينها الطاهر وتركتها تستريح.

كنت أَكبرُ لكنني كنت أرفض اعتبار الحياة معركة أو حتى حلبة مصارعة، وأنَّ الثأر والانتقام لا طائل من ورائهما، ما زال الغضب حاضرًا لكنه لم يتحرك من أعماقي، لقد سَكَن واستقر حتى تناسَيْته.

(۲)

آبیس

كان جفناه مثقلان ببقايا نوم لم يحصل عليه وهو يتوسد كفه التي خدلت فلم يعد يشعر بها تمامًا، يحاول طرد الملل الرتيب الذي غدا يدور فيه كطاحونة لا تتوقف عن الدوران. الساعة تشير إلى العاشرة صباحًا ولا يزال مستلقيًا في فراشه، تلكأ وهو ينفض عنه ثقل النوم وفتح حاسوبه، لتدخل أمه حاملة فطوره وقهوته، على الرغم من سماحة نظراتها، لم تخلُ من غلالة ضيق وغضب.

رنة الهاتف عاجلته بوصول رسالة فيها ملف صوتي، ضغط عليه ليفتحه بعد أن قرأ اسم المرسل، وكان أستاذه دكتور "جمال" الذي يشرف على رسالته العلمية.

أبواقُ السيارات تصدحُ صخبًا وضجيجًا في الطرقات بما يتناسب مع ما تحدثه إطاراتها من أزيز حين تحتكُّ بالأسفلت، وأصوات المارَّة معلنين ضجرهم واستياءهم من مقاسمتها الطريق معهم حتى باتت تستحوذ عليه جُلَّه إلا قليلًا منه، يلتمسون فيه عبورًا آمنًا أو مرورًا عادلًا فينجو من ينجو ويحيق بالبعض ما يحيق به.

منذ الصباح الباكر الزحام يفرض سيطرته على البقاع كلها إلا ما رحم ربي، سيمفونية الحياة التي تعزف أوتارها في كل مكان، المباني، الشوارع، الميادين ودواوين العمل، حتى

المقاهي والدكاكين، وجوه واجمة، أفكار شاردة، هموم تمشي على الأرض وكلٌّ ماضٍ إلى وجهته.

قاعةُ فسيحةٌ تراصَّتْ مقاعدها على شكل دائري، صفوف كثيرة تتجاوزُ عشرين صفًّا، في مقدمتها مقاعد وثيرة بلونٍ أحمر مخملي، شديدة الفخامة كثيرة البذخ وفي مركزها تمامًا شاشة عملاقة تبُثُّ بعض الأفلام التسجيلية والمعلومات الاسترشادية عن موضوع الندوة التي سيلقيها بعد قليل دكتور "راغب"، طبيب شاب في العَقد الثالث من عمره، بدا وقورًا ببزَّته الرمادية ورابطة عنقه الأنيقة، الطبيب الذي يُجري دراسات عن النحل ويُعِدُّ لرسالة الدكتوراه عن الاستشفاء بسُمِّ النحل، ويتعهد بإلقاء عديد من المحاضرات والندوات عن تجاربه العلمية والمعملية، التفاصيل التي برزت حين سلَّط عليها إضاءات قوية وجموع تَتدفَّق تتراصُّ نكمشب مُسَنَّدة، التَجهُّم الذي احتل محياهم جاوره صمت مُطْبِق حتى استقر الطيرُ فوقَ رؤوسهم، لينصتوا.

دخلَ القاعةَ للتو ترافقه حقيبة جلدية يضع فيها حاسوبه النقَّال وبعض الملفات والأوراق الخاصة بتجاربه العلمية، تراصَّ جموع الطلاب وعديد من الأساتذة وكبار الأطباء وبعض الضيوف، ليَدخل في زهو محيِّيًا الجميع.

استقرَّ بثبات أمام طاولة عريضة وضع عليها متعلقاته، وأمسك بالميكروفون الصغير ليطلب من الجميع الإنصات بعد أن ألقى عليهم التحية:

- مرحبًا.

ألقى نظرةً على الحضور الذين خفتت همساتهم وهمهماتهم رويدًا رويدًا حتى تلاشت فهُم طلاب عِلم، وبدأ في إلقاء مادته العلمية بعد تَقدِمةٍ من أستاذه والمشرف على رسالة الدكتوراه، دكتور "جمال":

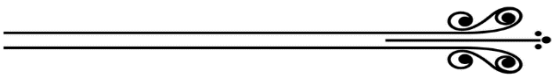

- نرحب جميعًا بدكتور راغب الذي سيحدثنا عن آخر ما توصل إليه في أبحاثه عن سُمِّ النحل والاستشفاء به، إذ استطاع من خلاله تنشيط الخلايا العصبية الموجودة في الدِّماغ وإرسال إشارات حسِّية تنتقل إلى الخلايا الموجودة أسفل الدماغ، فيزيد عدد كريات الدم الحمراء ويُنشِّط الدورة الدموية، مما يساعد على زيادة النشاط وحيوية الجسم.

تنحنح بابتسامة صغيرة بَدَت على جانب فمه وسرعان ما انزوت.

أمسك "راغب" الميكروفون وبدأ يشرح تجربته بعد أن حيَّا الجميع:

- التجارب المعملية لسُمِّ النحل ازدادت في المدة الأخيرة، وقد نتمكن في المستقبل القريب من استخراج عَقَارٍ يقوي المناعة ويُنشِّط الدورة الدموية ويعالج كثيرًا من الأمراض.

الوجوه القابعة أمامه غزتْها الدهشة وكساها الانبهار حين بدأ يتحدث عن تجربته الفريدة "العلاج بالنحل" أو "بأشربة النحل"، وهو الاستعمال الطبي لمنتجات عسل النحل، الذي يمكن أن يشمل حبوب اللقاح والعسل والعكبر والهلام الملكي. ومعظم طرق علاج النحل في الطبيعة لم تَثبُت للمعايير العلمية والطب القائم على الأدلة، لكننا نحاول أن نفعل ذلك.

تعالت الهمسات والهمهمات بين الحضور.

- لأن العلاج بالنحل هو علم له قاعدة علمية قوية من الأبحاث، وتراكم من التجارب تكمُن بعمقها العديد من الغرائب والأسرار. (١٦)

---

(١٦) أصل الكلمة اللاتينية "Api"، مأخوذ من الاسم العلمي لنحل العسل باللغة اللاتينية.

- "Apis Mellifeca" تعني النحل الحامل للعسل. - "Apis Mellifera" تعني النحل الصانع للعسل.

- "Therapy" تعني طريقة علاج البشر والحيوانات من مختلف أنواع الأمراض، ثم أُخِذَت الأحرف الثلاثة الأولى من "Apis" لتعبر عن النحل في معظم المصطلحات ومن أهمها العلاج بالنحل ومنتجاته "Apitherapy". [موقع: ويكيبيديا، عنوان المقالة: علاج بالنحل].

برز طالب يستوضح فسمح له بإيماءة من رأسه.

- هل جُرِّبَت هذه العلاجات وأثبتت كفاءتها؟ وهل رُصِدت أي أعراض جانبية؟

- لقد اقترحتُ مجموعةً واسعةً من الحالات والأمراض التي كتبها المؤمنون بهذا العلاج كمرشحين، لذلك فإن معظم العلاجات المعروفة تستخدم سُمَّ النحل لعلاج أمراض المناعة الذاتية والتصلُّب المتعدد. ويجب الحرص قبل البدء في العلاج على الكشف عن الحساسية المُفرِطة، بخاصة من سُمِّ النحل. والعلاج بالنحل هو استعمال منتجات النحل: (العسل – الغذاء الملكي – سم النحل – صمغ النحل – حبوب اللقاح أو خبز النحل – الشمع – النحل [اليرقات أو مسحوق النحل]) للوقاية والعلاج وتحسين الحالة الصحية.

طالِب آخر طالَب بسؤال فسمح له:

- هل العلاج بالنحل هو ممارسة خطرة؟

- الإجابة ببساطة، لا، مع بعض الاستثناءات والتحفُّظات، ولماذا لا؟ لأن العسل، الطلع، العكبر، خبز النحل، الهلام الملكي ويرقات النحل تُستَهلك في أغلب بلدان العالم كمواد غذائية أو مُكمِّلات غذائية بكميات عظيمة تخبزنا اليومي والحليب والأغذية الأخرى. وكذلك عند لسعة النحلة، تَشتَبك الإبرة في جلد الإنسان وتفقد معها جهاز اللدغ ثم تموت. إن منتجات النحل، وبالأخص العسل، معروفة جدًّا منذ العصور القديمة من الحضارة البشرية، ومذكورة في الكتب السماوية التي تتحدث مرارًا عن النحل وتصِفه على أنه مخلوق بالغ الأهمية في حياتنا البشرية. وفي خلال السنة الأخيرة، استُعمِلت منتجات النحل بكميات كبيرة دون أن تُسبِّب أي معضلة لأي مخلوقٍ على وجه الأرض. الأمم الطبية لعصرنا الحالي تنصح باستعمال العسل بديلًا عن المواد الغذائية المتنوعة مثل السكر. وتوجد دراسات طبية أوضحت أن ٩٨% من الأشخاص

الذين يستعملون منتجات النحل لا يُظهِرون أي ردود جانبية أو حساسية، مع بعض الاستثناءات [١٧].

رفعَ يدَه مشيرًا إلى انتهاء المادة العلمية الدسِمة التي ألقاها ورصد في أثنائها تململُ الحاضرين وضجر بعضهم.

***

جلس بأريحية على مقعده وتبادل النظرات مع من حوله عساهم يغلقون النقاش المحتدم الدائر بينهم، تفحَّص "عمرو" زميله في العمل، ليقع نظره على ابتسامة جانبية ساخرة وهو يقذف أحد الملفات على سطح مكتبه:

- السياسة لعبة قذرة، مُستنقع آسِن لا يخوضه سوى الأوغاد والأفَّاقين.

أمَّن "راغب" على تصريحه علَّهم ينهون النقاش ويرتاح قليلًا.

أن تقول ما لا تؤمن به، أو أن تُردِّد ما يخالف عقيدتك أمر صعب، والأصعب أن تدفِن مشاعرك حتى لا يلحظها أحد ولا يتأذى منها أحد، مزيج من الحيرة والخجل يَعصِف به فيُداريه.

---

(١٧) إذ إن المواد الكيميائية الكثيرة تُلوِّث الغذاء والماء والهواء والآليات الكيميائية الحيوية العميقة والمُهِمة للحفاظ على التوازن الداخلي، وهذا "العنف" الكيميائي يرفع معدل القلق النفسي (العائلي والاجتماعي والمهني) وغيره من العوامل (مثل الوظائف الجسمية، الموروثات، إلخ)، ما يدفع بالجسم إلى ردود تسمى "حساسيات"، التي يمكنها أن تتأثر سلبيًّا بمنتجات النحل كذلك. وتطور المواد الكيميائية حساسياتٍ للطلع، العسل، العكبر وغيرها، من ١ إلى ٢% من منتجات النحل، ويمكنها أن تُثير حساسيات لمنتجات النحل وفي حالات نادرة قد تكون قاتلة. إذا ربطنا بين الحالات السلبية السابقة المحتملة في العلاج بالنحل مع رد الفعل الفطري والغريزي تجاه قرصة النحل للإنسان، يمكننا فهم بكل سهولة أن السلطات المحلية تتصرف بكل تحفظ حِيال طُرقنا في العلاج. وحدها معرفة عميقة لأسلوب عيش النحل وأهميته للطبيعة ككُل وللصحة البشرية والحيوانية يمكنها أن تُقلِّص الخوف وردود الفعل الرسمية والمُفرِطة التي تحدث دائمًا. [موقع: ويكيبيديا، عنوان المقالة: علاج بالنحل].

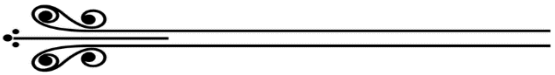

- نعم يا عمرو، صدقت، لقد هرِمنا من نفاقهم وكذبهم.

قابل "عمرو" تعقيبه بسخرية، تاركًا القلم يهوي من بين أصابعه مُضِيفًا:

- والحمقى يُعطونهم قُبْلة الحياة كلما حاولنا قطع دابرهم والقضاء عليهم.

كان يتحدث حديث نفس هي خير من ألف نفس تَعِد ولا تفي بوعدها، تُقسِم وتَحنِث بحلفها، فيا صاحب الكلام أما وقد بلغني ما بلغني فلم تحفظ العهد، وبِتَّ تفكُّ الوثاق قبل القَيد، حِدْتَ عن الإيمان، وغَدَوت إلى النفاق أقرب، وإن الغايات على قدر أصحابها والمجد لأصحاب الهمم العالية، أما أهل الدنايا فلهم الدَّنِيَّة.

تمتم "راغب" بخفوتٍ وقد نضَح جبينه بعَرَق غزير:

- لا تنسَ يا صديقي أنَّ النحلة تحمل سُمَّها وعسلها في الجسم نفسه.

لم يكن "راغب" بِدْعًا من البشر، كان ككثير ممَّن يعيشون لأنفسهم فقط، فلا أرضًا زرعوا ولا حصادًا جمعوا.

دَمْدَم بضيق وهو يلاحظ تغامزهم ليُنهيَ الأمر بغير اكتراث:

- لا شيء يهم.

التحق بكلية الطب رغم ما تعانيه أسرته من ضِيق ذات اليد، فاضطرت شقيقاته إلى العمل ومنهنَّ من اكتفت بمؤهل متوسط أو زيجة متواضعة تيسيرًا على والدهم، وبعد تخرُّجه أنفق ماله كله على الدراسات العليا والأبحاث التي يجريها، فهو يجري تجارب مَعمَلية ودراسات عن النحل وسم النحل والاستشفاء به، وقد حصل على الماجستير، والآن يجري دراسات علمية للحصول على الدكتوراه التي قطع في سبيلها أشواطًا، وبجانب

عمله في مركز الأبحاث كان يزور الجامعة يوميًّا، للتواصل مع أساتذته وإلقاء بعض المحاضرات والفعاليات عن تجاربه.

لم ينس أبدًا يوم استدعاه أستاذه باتصال هاتفي صباحي وهو الذي يشرف على رسالته الطبية، لن ينسى أبدًا نظرات الإعجاب المتَّشحة بالوقار حين بادره بسؤاله:

- مرحبًا راغب.

صافحه بقبضة قوية وتابع:

- وددتُ التحدث معك بشأنِ آخرِ تقريرٍ أرسلته إليَّ عبر واتساب.

- مرحبًا دكتور جمال، أشكر اهتمامك.

- لقد اطَّلعت على مقال في مجلة علمية يتحدث عن تجارب مشابهة لتجاربك فأردت مناقشتك فيه، ولكن بعد اطلاعك عليه ودراسته بتأنٍّ وتفكير.

- على الرحب والسعة أستاذي.

- المقال يتحدث عن الاستشفاء بسُمِّ النحل ومراحل تطور الاستفادة منه.

اعتدل "راغب" في جلسته، ومد يده ليتناول المجلة العلمية من يد الدكتور "جمال" الذي أضاف:

- إن التجارب المعملية الأخيرة تشبه كثيرًا ما توصلت أنت إليه، ولكنك تقدمت عنهم بمراحل في أطروحتك العلمية.

حاول "راغب" أن يتحدث شاكرًا لكن دكتور "جمال" قام عن مقعده وسار بخطوات متباطئة نحو مجلس "راغب"، ليستطرد:

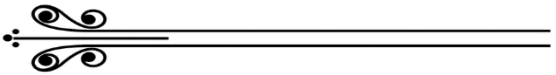

- لذلك لا بد أن تسرع في أبحاثك قبل أن يسبقوك في اكتشافاتهم وتُضَيّع فرصة تحقيق إنجاز علمي يُقرَن باسمك في المحافل الطبية.

كان "راغب" يثقبه بنظرات نافذة غير مُصدِّق ما يسمع، أخيرًا وجد الدعم الذي كان يتمناه.

- الدراسات كلها جاهزة يا دكتور، ما أعمل عليه الآن هو التجارب المعملية وتطبيقاتها.

- أعلم أن الأمر ليس سهلًا ولكن عليك الإسراع.

هزَّ "راغب" رأسه متمتمًا بعبارات شكر وامتنان ورحل عن مكتب أستاذه وهو يشعر بالزهو مما دار من حديث، مفكرًا فيما ينتظره من مستقبل علمي باهر.

***

معتمة وموحشة طرقات المدينة وكذلك بيوتها، فقد دخل الكل وأُطفِئت المصابيح فلا تكاد تسمع إلا همسًا.

الأمهاتُ هناك جمعن الأطفال في فُرُشِهم، ولم يسمحن لهم باللعب أو الصحو أصلًا، ولا يفلت من بين أيديهن أحد، لقد حفرت فيهنَّ الأحداث مرارة وكسرًا.

- ثمة خطر في المدينة يا مولاتي.

قالها اليعسوب برهبة.

ظل واقفًا منصتًا ومنتظرًا أوامر مليكته التي ملأ صوتها المكان، فأضاء العتمة خاطفًا كالبرق كما لو أنَّه يخترق صفوف العدو.

- إذًا فهي الحرب!

الجند يعملون بإخلاص ويقدمون كثيرًا من التضحيات، ليس هذا ما يقلقها لكن الأمر جد خطير.

غضنت الملكة جبينها وقالت بتوتر:

- وماذا عن العتاد والسلاح؟

ران عليهما صمت مطبق، فالأوضاع في غاية البؤس والأحوال في منتهى السوء، فمنذ انفصالهم عن مملكة الشهد وهم يحاولون تهيئة المكان لعيشهم، لكن الحشرات والطفيليات تنقض عليهم بين حين وآخر فتُدمِر ما صنعوا.

وجومٌ على الوجوه ويأسٌ بدأ يدب في القلوب، عاجلته الملكة بطمأنتهم ووعد بطلب إمدادات من مملكة الشهد. مرت لحظات عصيبة بعد انصرافهم يملؤها القلق والحيرة ويبعثرها التفكير في حل للخروج من تلك الأزمة.

حين تغمض عينيك وتدير ظهرك للأحداث، فأنت حر.

حين تسد أذنيك وتكتم أنفاسك وتتلاشى، فأنت حر.

حين تفقد صبرك وأنت تبحث عن نظارتك الطبية فتسبها بأقذع الشتائم، فأنت حر.

حين تدخل في حوار مع أحدهم وتكتشف أنه حديث معاد وقُتِل بحثًا، فأنت حر.

حين تتابع برامج التليفزيون فتشاهد الكذب على الهواء مباشرة، فأنت حر.

لك مطلق الحرية أن تطلي جدران غرفتك باللون الأبيض أو الأزرق، أن تلبس قميصًا ورابطة عنق وفوقهما بزة أنيقة أو أن ترتدي سترة وبنطلونًا من الجينز الخفيف، أن تأكل في البيت أو تذهب إلى مطعم، أن تتناول خبزًا أبيض أو أسمر، أن تبني بيتًا أو تستأجر شقة... لكن في زمن الحرب، لن تفكر سوى في صوت الرصاص.

❊❊❊

الحرب خدعة وفي سبيل النصر كل شيء مباح، الخدعة والخديعة والخداع، استراتيجية الحرب أو استراتيجية الحياة، تعددت الوسائل والنصر واحد، حصار، خداع، مراوغة، والهزيمة ليست مدرجة ولا مقبولة، إما النصر وإما الشهادة.

العقول شاردة، الروؤس متصلبة والأعين متفحصة في حين انتفض "خشرم" صارخًا:

- إن جيشًا من مخلوقات غريبة يزحف نحونا!

ارتبك الجميع وقد تصببنا عرقًا.

أفاق "راغب" على صوت يعوي من بعيد، ظنه في البداية كلبًا، ولكنها كانت الذئاب تحوم حوله، أعينها متسعة تتهيأ لافتراسه. تراجع زاحفًا إلى الخلف، فاصطدم كفه بحجر قبض عليه بشدة وبالكف الأخرى قبض كبشة من رمال الصحراء.

وفي لمح البصر، استقام وقذف الحجر باتجاهها ثم نثر الرمال في أعينها المتحفزة، فتخبط بعضها ببعض، مما أتاح له الفرصة ليبعد عنها وتتلقفه غابة بأشجار عالية، اختبأ وراء واحدة منها وكانت شجرة بلوط عتيقة.

***

منهكةٌ كانت تلك المدينة، تكاد تكون فارقت الحياة، فكل شيء فيها معطل والحياة متوقفة تمامًا.

كانَ الصمت موحشًا يقبضُ بقساوة على أعناق الناس، يمحو كل شيء، أنفاسهم، خطاهم، صرير أبوابهم، حتى أصوات طيورهم، لا شيء غير الصمت الذي يدفن كل شيء في مقبرة جماعية.

هدر "اليعسوب" أخيرًا بكلمات قليلات:

- الحرب كر وفر يا مولاتي، والمدينة محاصرة لا حيلة لنا.

- لا تقُلْ كلامًا كهذا مرة أخرى، لن تضيع مدينتنا ما دمنا أحياء.

- يا مولاتي، لقد خسرنا رجالًا كثر، وسَجِنَ أكثر منهم وها نحن مطاردون.

- يا يعسوب، ما دام فينا نفس يتحرك، فسنقاتل. لن نقايض أبدًا على وطننا، لو فعلناها لخسرنا كل شيءٍ حتى أنفسنا، فلن ننتظر أن يقاتل عنا أحد أو ينصفنا أحد إن لم ننصف أنفسنا أو نموت فداء لأوطاننا.

على الناحية الأخرى، حديث لا ينقطع بين "فاروا" ورجاله من الخطاطيف والخفافيش.

- إنها قرية مسالمة سيدي، كأننا في نزهة لا حرب!

- كن حذرًا ولا تضع ثقتك في أي شخص منهم، ولتبدأوا الهجوم مع أول لحظات العتمة، فهي الأصدق دائمًا في بث الرعب في قلوبهم بعد أن طال الحصار.

- أمرك سيدي.

قالها الجندي بعد أن أدى تحية عسكرية لقائده ورحل.

من ثلاث جهات شُنَّ الهجوم على المدينة وبدأ إطلاق النار، اقتحموا البيوت وأخرجوا من فيها، كانت الأغنام تنفرط كحبات مسبحة، والخيول تصهل وتدق الأرض بقوائمها، والأبقار تدور حول نفسها. أما سكان المدينة فكانوا في فزعة مريعة، تلفحهم نار الحربِ التي بدأت وازداد اشتعالها.

لكن مجموعات الصد التي أعدها "اليعسوب" و"خشرم" كانت على أهبة الاستعداد، وباتت المداهمة والهجوم سبيلًا للوقوع في فخ كبير، وطُوِّقوا في وسط المدينة كأنهم رتل من الجراد، محاصرون في ساحة وسط المدينة.

وجدوا أمامهم ألف بندقية مصوبة فوهاتها إلى رؤوسهم، فبدأوا يتراجعون وأعين بنادقهم تتدلى حتى طُرِحَت أرضًا وولوا هاربين.

***

جموعٌ كثيرةٌ تجمعت مرة أخرى من الخطاطيف، كأنها أسراب نمل من شقوق النوافذ وثقوب الأبواب. لم يتوقف الضرب نهارًا كاملًا، رأوا الموت بأعينهم

يذرع قمم التلال ويحكم وثاقه عليهم، لكنهم ظلوا يقاتلون. كانت لياليهم طويلة، طويلة بما يكفي ليتجرعوا الموت ألف مرة.

جموعُ المهجرين تتزايد بعد أن طُرِدوا من قراهم، لكنهم يحتفظون بمفاتيح بيوتهم وهو ما آثار غيظ الخطاطيف وأشعل النار في صدورهم.

الخوفُ اقتلعَ قلوبَ الأمهات، فاختبأن في الغارات البعيدة وهن يهمسن: "لا نريد دير ياسين أخرى".

الخطاطيف بعد أن ضربوا بقوة، جمعوا أنفسهم مرة أخرى وفخخوا بيوت القرى، وبنظرة ملؤها الشماتة ألقوا نظرة على تلك القرية التي استعصت عليهم ووقفت في حلوقهم وقاتلتهم حتى هزمتهم، وكان الانتقام المزلزل إبادة جماعية لكل ما يتحرك على الأرض.

صاح "فاروا" معلنًا أن لحظة التفجير قد حانت:

- لا أريد أن أرى شيئًا حيًّا فيها بعد الآن، لا بيوت لا شجر ولا أي شيء.

بدأ "فاروا" العد التنازلي من عشرة حتى وصل إلى واحد، لكن لم يحدث أي شيء.

عم الصمت كما لو أن الانفجار قد حدث، ليفاجأوا بما لم يتوقعوه أبدًا.

راغب

أرخى الستار عن عينين محاصرتين بكحلٍ ناعم، لا لم يكن كحلًا، لقد كان نقاءً وطهرًا، وشفتين تغربُ الشمس بينهما، رمقتني لثوانٍ لم ترمش فيها لحظة فتوقف الزمن.

الفضول الذي اجتاحني حتى ثبَّتَ قدمي في الأرض وأبقى على أهدابي لا تفاوض لرمشة، ثم عُقِد لساني فلم أنطق بكلمة. كورقة شجرٍ في خريفٍ عاصفٍ يبست فدهستها أقدام المارَّة حتى تبعثرت وتناثرت ثم تلاشت، هكذا كنت.

افترش القلق ملامحي وتدحرجَت الحيرة من عقلي إلى كتفي حتى سكنت قلبي.

اللحظة غير قابلة للتصنيف، بل غير قابلة للفهم، استعصى عليَّ كل شيء فانغلقت كل الأبواب.

على شاطئ النهر وقفت طويلًا، كان الغضبُ قد بلغ مبّي مبلغه، أكاد أتميز من الغيظ لما حولي من تيهٍ وفراغ، أخذت نفسًا عميقًا عمق المسافات والانتظار، عمق اللهفة والوحشة والضياع، غمرتني رائحة الماء فانتشَيت بعبقها، ضمتني أمواجه لتلف غضبي وتُهدِّئ ثورتي، سكبت ماء الرضى، لتُخْمِد اشتعال نار الغضب، كنتُ أبثه حزني وأجأر إليه بعجزي فصَفَت أمشاجي وهدأت خلجاتي.

ظل وجهٌ يرقبني باهتمام، الأرض تدور بي وأحاول أن أرى مَن حولي لكن الرؤية مشوشة، أصواتٌ كثيرة حولي لم أتمكن من سماعها بوضوح، وهمسٌ في أذني يُهَسهِس بطيئًا، شعرت بيد تمتد تُمَسِّد جبهتي بلطف، تتحسَّسها كل دقيقة، بعض الماء البارد يلامس بشرتي وتمتمات دعاء وصوت لطيف معتاد يردد الرُّقية وبعض آيات القرآن.

تذكرت أنني لم أُصَلِّ منذ البارحة، أستنهِض جسمي أحاول القيام لأتوضأ لكن محاولاتي كلها باءت بالفشل، يداي ترتعشان، جسمي كله يرتجف، الحرارة تطوف برأسي، كنت محمومًا، كأن جسمي مُثْقَل بأطنان من أكياس الرمال مشدودة إلى الأرض تسحبه إلى أسفل وأسفل حتى الأعماق. فتحت عيني بصعوبة بالغة فأثارت نظراتها القلقة اضطرابي، كانت تضم يدي ضمة وتشم باطنها، ترنو إليَّ ببصرها، تحاول أن توقف رعشة أصابت أطرافها فاستمسكت بكفي وانزوت في عينيها دمعة شفقة، كانت تَرأف لحالي فقد كادت الحمى أن تفتك بي.

كنت في خلال هلاوسي أذكر أسماءً وأنادي أشخاصًا، والعجيب أنني كنت أعي كل ذلك كأنني أشاهد فيلمًا سينمائيًا أو أحضر مشهدًا في مسرحية أنا بطلها، خاطبتني محاولة بثِّ الأمل في نفسي والتخفيف عني:

- كن قويًّا، ستتعافى وتجتاز المرض والحمى بأمر الله.

حطَّ الصمت رحاله على الشفاه فسكنت، وطال بنا المقام، كانت تراقبني خوفًا عليَّ أو خوفًا من أن تفقدني، سارعت بطلب "رضاب" [١٨] وهي طبيبة القصر، طلبت منها أن تعتني بي وتعالجني من الحمى.

تهامست "شهد" مع الطبيبة بصوتٍ خافت، ندَّت قطرات العرق من جبيني، همَّت أن تسحب يدها من كفي فراح نفسي يتصاعد فضغطت عليها برفق،

---

(١٨) رضاب: اسم من أسماء العسل.

ووجهي المشوب بحمرة الحمى ازداد احمرارًا، أما هي فكانت عيناها بحرًا هادئًا لكن حزنها عليَّ جعلهما غائمتين، خفق فؤادها خفقةً وقفت بيننا شاهدة علينا، ولكني كنت ذاهلًا عن نفسي.

بدأت الطبيبة في العلاج، وكان علاجها ناجحًا فقد قضى على المرض في ساعات معدودات، الغريب أنه كان شيئًا يُشبه العسل الأبيض، فيه خيوط من الشمع أذابته في بعض الماء وسقتني إياه ومسحت به على جبهتي وهي تتمتم بالدعاء، كان المعطف الذي ترتديه يخفي جسمًا نحيلًا، كانت بشوشة الوجه طاعنة في السن فيها مسحة من جمال قديم.

شقَّ صوتها الرخيم السكون وهي تبتسم وتسألني:

- كيف حالك الآن يا ولدي؟

اعتدلت في جلستي، وأسندت ظهري إلى الجدار وأجبتها بامتنان:

- بخير الحمد لله، شكرًا لكِ يا سيدتي.

- هذا واجبي، فلتبقَ في الجَبْخ حتى تتعافى يا بني.

نظرت إليها نظرة استغراب وتساؤل متلفتًا حولي، أستدلُّ من المكان على معناه.

- الجَبْخ؟ [١٩]

- أنت غريب إذًا عن المكان!

رمقتني بنظرة غريبة ومضت، لكني رأيت في وجهها صورة أمي بالفعل، كانت في تلك اللحظة هي أمي تجلس بجواري مريضًا، تسقيني الدواء وتتحسس جبهتي

---

(١٩) الجَبْخ: الشِقُّ الضيق، وهو اسم لبيوت النحل الجبلي.

الملتهبة، لم تتركني وحيدًا مع المرض، بل واجهته معي وصدته عني وحمتني منه بكل قوة.

قمت من مرقدي أشدُّ جسمي وأقيم ظهري بصعوبة، تريثت قليلًا أمشط المكان بناظري، ألتمس سبر أغواره وكشف أسراره فلم أهتدِ إلى شيء، قررت أن أترك مخدعي وأتجول قليلًا في المكان علَّني أتعرف عليه. سرت بأمان بين أرجاء المملكة أطالع كل شيء، المساكن، الأسواق، الدواوين والساحات.

سرتُ خطواتٍ وصعدتُ درجات، ولجتُ تلةً فيها قاعات واسعة تفصلها عن الأخريات، قوائم شمعية صلبة لها رائحة أخَّاذة، سرت عند البوابات، لأرى النظام والعمل الدؤوب، أما حواف المملكة من الجهات الأربعة فيحرسها أعداد غفيرة من الجنود البواسل، يسهرون الليل ويواصلون النهار، يحمون الأرض والأرزاق، ويدافعون عن الأعراض، لا يبيعون وطنهم ولا دينهم، لا يقايضون على شرفهم ولو بكل كنوز الدنيا، رجال لا يقبلون الذل ولا يرضون الهوان، صدقوا ما عاهدوا الله عليه فصدقهم الله، من قُتل منهم فهو شهيد ومن نجا فهو بطلٌ صنديد.

انتشَيت بعطرٍ أخَّاذ استنشقته حواسِّي فلامست مني راحة وسكينة، رائحة الزهور وعبيرها الخلاب تُقرُّ العين وتسرُّ النفس، تزيل الهم وتجلي الكرب.

استرعى انتباهي نهر صغير لونه أصفر، بُهِرْت من روعة جماله، دنوت منه واغترفت غرفة بيدي لأتذوق طعمه العذب، طعمٌ لم أعرفه من قبل، أحلى من العسل المُصفَّى وأجمل من الشهد، ركضت على شاطئ الرمال وقد غمرني النور وغمرت روحي السعادة، ألقيت عليه مَوَدَّتي، وعلى شاطئه جُلْت بنظري وصدحت بترنيمتي وبُحْت بسري، فأماطت اللثام عن وجودها وكشفت النقاب عن قربها، إنها بجواري، أكاد أسمع أنفاسها وتكاد تصلني خلجات روحها، نظراتها تقطر رقةً وشوقًا.

التفتُّ فإذا هي تراقبني، وقفنا نتأمل البحر وروعته ورماله الناعمة تداعبها الأمواج، تلثمها برفق ثم تنسحب عائدة إلى البحر مرة أخرى، لتكررها مرات ومرات.

عُدنا إلى الجَبْخ بعد أن شعرنا بالإرهاق، استلقيت على فراشي عاقدًا يديَّ خلف رأسي مُحملقًا في سقف الغرفة، كانت بيضاء كالثلج تفوح منها رائحة طيبة، كل شيء هنا نظيف ومُنمَّق، لا فوضى ولا أحد يسمح بها، وما لفت انتباهي في رحلتي هو تفاني العاملات في المملكة.

فاروا

كان مشغولًا بمعرفة السبب الحقيقي لإخفاق التفجير، خطرت له أفكار كثيرة، أحدها أن يستدعي كل نساء القرية ويحبسهن ولا يسلمهن لأزواجهن حتى تعترف القرية بما حدث، ويعلنون عن أسماء الفدائيين، بل يسلمونهم.

معاركه مع القرى كلها مفتوحة نهاياتها، لم يحصل على انتصار واحد كامل.

تراجع عن فكرته والحرقة تكوي قلبه، فهو لا يضمن ردات غضب الأهالي. التقارير أمامه كثيرة عن كل شيء في المدينة، عدد سكانها، عدد النشطاء والحزبيين، وهناك أيضًا عدد لا بأس به من الجواسيس أو العملاء المزدوجين، عدد السجناء كبير، فالسجون والمعتقلات تكتظ بشباب الانتفاضة.

خرج "فاروا" متفقدًا القرية، كان كل شيء هادئًا، الشوارع، المتاجر الأزقة، الحقول، القطط، الكلاب والأغنام، كل شيء هادئ ولا يوجد أحد تمامًا.

ارتاح "فاروا" لتلك المشاهد الساكنة ولا حياة في المدينة، وفجأة سمع صوت طلقات وانفجارات بعيدة، فأمر الجنود بوضعية الاستعداد.

خرجت دوريات للقبض على مثيري الشغب وانطلقت العربات العسكرية تجوب الشوارع، ثم اخترق الصمت رشقات من الحجارة ترتطم بعربته العسكرية ورتل العربات المصاحبة له.

طلب من السائق التوقف فورًا وأمر الجنود بملاحقتهم، لكن العربات التي توقفت فجأة اصطدم بعضها ببعض محدثة ضجيجًا كبيرًا.

نزلَ الجنودُ مشهرين أسلحتهم، ولم يكن وجد أحد ليطلقوا النار عليه، فأمرهم "فاروا" بضرب الأهداف وإن كانت غير مرئية، فتوالت زخات الرصاص متعاقبة في الهواء، وحين توقفت عم الصمت المكان مرة أخرى. وقبل أن يصعد الجنود عرباتهم، توالت عاصفة حجرية من كل الاتجاهات، وغطت الدماء وجوه بعض الجنود، ولا يعرفون مصدر تلك الحجارة.

- هل من البيوت؟ أطلِقوا النار على البيوت.

صاح منفعلًا:

- هل من المزارع؟ أطلِقوا النار على المزارع.

جن جنونهم ولم يصلوا إلى أي شيء.

أمرهم "فاروا" بالتحرك، لكن ما حيرهم أن الناس بدأت تظهر، رجل فتح دكانه وبدأ يرص بضاعته وبعض النسوة المتجهات إلى السوق وبعض الأطفال والرجال يسيرون في شوارع المدينة ولا يعيرونهم أي اهتمام، بل لم يوجهوا نظرهم إليهم حتى إنهم شكُّوا في وجودهم في المكان.

تحرك رتل العربات العسكرية بمزيد من الحنق والغضب، لكن بحذر كبير وأصابعهم على أَزْنُد البنادق جاهزة لإطلاق النار، وفجأة دوت عاصفة من الحجارة حتى اشتعلت السماء فوق رؤوسهم.

جن جنونهم فأسرعوا صوب المكان، ليُفاجَؤُوا بأن الحجارة ترشق من كل اتجاه، كأنهم وقعوا في مصيدة أو كمين، يُرجَمون من كل حدب وصوب.

أعطى القائد "فاروا" أوامر لجنوده بالعودة، فاستدارت العربات ورجعت.

الخطاطيف

أصوات الحرب تقرع الأجراس، يدوي صهيلها في الأفئدة قبل العقول، المحاربون ينتظرون شارة بدء المعركة، كي يقتصُّوا لمن صُرِعوا ومن جُرِحوا غدرًا، الألم يعتصر القلوب فتتلظى مراجل الغضب، وريح الموت باغتتهم بالأمس، فمنهم من لقي حتفه ومنهم من ينتظر، وها هي العُصبة التي بغت على مرمى الأبصار، هم من بغوا ظلمًا وعدوانًا، وكل ما يريدونه قصاص عادل، فمن قَتل يُقتَل ولو بعد حين، ومن جَرح يُجرَح ومن سَرق تُقطَع يده، أما من رَوَّع الآمنين واستباح حرمات الله فأولئك جزاؤهم أن يُقتَلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّع أرجلهم وأيديهم من خِلاف أو يُنفَوا من الأرض.

صاحت الملكة "شهد":

- قد وجب القصاص، العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم، وهم ظَلَمُوا وطَغَوْا وبَغَوْا وارتَدَوْا حُلَّة الطمع واستلُّوا سيف البغي، أغاروا على البلاد وأكثروا فيها الفساد، إنهم الخطاطيف مملكة القتل والنهب والسلب. فلنذيقنَّهُم سَوْط العذاب، فلا تُفلِتوهم وكونوا لهم بالمرصاد، فيا جند الحقّ ويا حماة المملكة كونوا سيوفًا بتَّارةً على أعدائكم، كونوا رمز القوة والشجاعة ولا تَتَولَّوا يوم الزحف "فإنما النصر صبر ساعة، وإنها لكبيرة إلا على الذين هدى الله".

صيحات الجنود الغاضبة تطنُّ في الآذان، بدأت المعركة وتلاحم الفريقان، كان الظلام دامسًا والليل بلا قمر عدا بعض المشاعل التي أُوقِدَت هنا وهناك، اكتظَّت ساحة المعركة وبريق الأسلحة يلمع في السماء، دارت رَحى الحرب وحَمِيَ وطيسها، ليتساقط القتلى هنا وهناك، كان جنود "مملكة الشهد" يثأرون للثكالى والجرحى، فعقيدتهم العدل والحق والقصاص، وقد كانت الخطاطيف عصابات تهاجم الآمنين، تُروِّعهم، تسلب أقواتهم وأرزاقهم، وأحيانًا حياتهم.

الحرية والكرامة أغلى من الحياة، بل أغلى من الموت في سبيلها، فالمرء حيٌّ بحريته ميِّت بعبوديته، وإن قُدِّر لنا الموت فلنبِع الحياة بما يستحق وليكن الثمن هو الحرية والجائزة هي الجنة، ولن ننال الحرية إلا إذا هانت علينا الدنيا ونَخلصنا من الخوف، حينها سيكون الغد أفضل، لأن اليوم كان مؤلمًا، وستكون الشمس أزهى، لأن الظلام طال، وسيكون النهار أدفأ، لأن الليل تَعِب من البرد، وسيكون القلب أنقى، لأن الحزن غسله.

كبُنيانٍ مرصوص يشدُّ بعضه بعضًا وقف الجند، رجال أشداء البأس أقوياء، لِحاهم كثَّة وشواربهم عريضة، قامات فارعة، وأكتاف عريضة، وجوه متَّشحة بالوقار، يُرهِبون عدوَّ الله وعدوهم، يَفدُون من كل حدْبٍ وصَوْب. لحظات وتوافد بقيَّة الجيش تباعًا، صرخات الموت تعلو وتتتابع، رائحته تكاد أن تُزكِم الأنوف كأنها غلالة سوداء قاتمة لها رائحة زاعِقة تُخيِّم فوق الرؤوس وتطبع على الصدور، فكل من تحت مظلَّتها ميت، أو في انتظار الموت منذور، إنها لُجَّة الموت المُفجِعة تدبُّ في القلوب.

سحبَ الليل رداءه، لتغوص المملكة في الظلام وتفرُّ عصاباتُ الخطاطيفِ بعد أن فقدت جلَّ جندها ونَفِد عتادها، أحاطتهم ظُلمة الليل وظُلُمات الخِزْي.

بروبوليس

الوقت يركض كأنه خيول جامحة فرت من جحيم، لم يُقدِّر للملكة أن تنعم بأمان، فسرعان ما حدث انقلاب يتزعمه "عكبر" [٢٠] وجماعة "البروبوليس"، كانوا موسومين بحقد وغل كبيرين، فالذئاب لا تعيش مع الغنم ولا تعترف غريزتها بغير أنيابها، أُسِرَ من أُسِر وقُتِل من قُتِل وجُرِح من جُرِح، وكنت ممن أُسِروا، اقتادوني إلى غرفة مصمتة باردة كئيبة كالموت، يداي مقيدتان إلى الخلف، وعصبوا عيني فلم أعد أرى أي شيء، فقط سواد مُستَحكم مما زاد من برودة المكان. جثوت على الأرض، سُلِب مني الأمان، وكانت القيود تمنعني من الاستلقاء على ظهري فتمددت على جنبي قليلًا، تذكَّرت حالي، ثُرت وصرخت: لِمَ تضعونني هنا؟ لِمَ تحبسونني؟

تلقيت لَطمة على وجهي جراء صراخي، جرحت تلك الكفُّ كرامتي قبل وجهي، لم أُصدق أن أحدهم فعلها وهِجت كثوْر جامح لتلطمني كفٌّ أخرى فتُقعِدني وتُخرِسني تمامًا، ثمَّة كدمات على وجهي وتوَرُّم في عيني اليمنى وآثار تعذيب على معصمي وعنقي، وما زلت في حيرتي لا أفهم من حولي أي شيء.

---

(٢٠) عكبر: صمغ النحل ويسمى بروبوليس، هو مادة حمضية لزجة قابلة للذوبان بالأثير، تجمعه نحلات العسل من براعم وعصارة الأشجار.

الوقت يمرُّ مُتثاقلًا وبالكاد تنامت إلى سمعي أصوات عبر باب الحجرة، ولا تزال العصابة تغطي عيني فأتَململ من الضجر، لم أُميّز ما قيل، ولكني غرقت في حيرتي وحزني، ألف ذكرى تجتاحني، مشاعر متضاربة تغمرني، وظلَّت أطياف أسرتي وأصدقائي تشغل بالي، رأيت الصورة كاملة ورأيتني فيها مسخًا سلبيًّا لا يعنيه إلا نفسه، لا يهتم بشيء سوى نفسه، مزقتني الحقيقة، كنت دنيا من الأنانية وفضاءً من النرجسية، آه لو قُدِّر لي أن أصلح الأمر، أن أجعل والدايَ يفتخران بي، أن يرفعا رأسيهما بكبرياء، أن أُعِيد إلى أبي اسمه الحقيقي وإلى وجهه الابتسامة وإلى قلبه السعادة، أُعِيده إلى قريته مُكرَّمًا مُعزَّزًا، أردُّه إلى عائلته وأصدقائه ووطنه.

أريد لأمي الفرحة، ولحلمها أن يتحقق، وفؤادها أن يطمئن، أن يلهج لسانها بالدعاء لي، كل ما أريده أن تكوني راضية يا راضية، يا نخلة الدار وياسمينة فؤادي.

وخُيّل إليَّ أنها تقف أمامي وتمدُّ لي كفها تستنهضني، رأيتها بشالها الأسود ولفعتها الزرقاء تُقبّلني قبلة الرضا وتزداد ابتسامتها اتساعًا، كانت السماء تبكي في هذه الليلة أو هكذا شعرت، كان مطرًا ثقيلًا كأنه يلطم الأرض، كأن السماء غاضبة مما يحدث.

رفعوا الغمامة عن عيني، وجوه كثيرة حولي، منهم من عرفت ومنهم من لم أعرف، فركت عيني لأزيح عنها غشاوتها وهممت أن أنطق، فصاح "عكبر" بصوتٍ غليظ:

- تقدم أيها الغريب، لقد عفونا عنك فارحل ولا تعُد.

لم أصدق أذني، أَحرٌّ طليقٌ أنا؟!

ها هو لسان الحرية غير ذي عِوَج، ركضت وكانت قدماي تنهبان الطريق نهبًا، عَدَوت وعَدَوت حتى صارت المباني بعيدة كالظلال، الصحراء تحيط بي من كل جانب، أمُدُّ جِذعي لأنهض فتغوص ركبتي في الرمال وأصرخ من الألم فتتوه صرختي في الفضاء، زحفت بضعة أمتار وأنا أجرُّ رجلي خلفي، الرجوع صعب لكن التقدُّم أصعب، كل الطرق متشابهة ولا سبيل إلى الخلاص فكل ما حولي فراغ.

الشمس التي كابدت لتنفث كامل حرارتها على تلك الصحراء الشاسعة، كابدت مرارًا حين أوقدت النار في أضلعي وسلتني بهجيرها.

على مرمى البصر يمتدُّ بساط البحر الأزرق ساحرًا ناعمًا، وكلما اقتربت ابتعد حتى يئست من الوصول إليه، كنت أفرُّ بالمسير من المصير، فذاك البساط لم يكن في النهاية بحرًا ولا شاطئًا، لقد كان سرابًا، رمال صحراء شاسعة تحيطني من كل الجهات.

كنت أصارع الموت، فكافحت للنجاة حبوًا على الرمال، وظلَّ بطني ملاصقًا للتراب حتى وصلت إلى تلة مرتفعة قليلًا، مَدَدت عنقي وحاولت أن أستشفَّ المكان لكنني لم أصل إلى أي شيء، فقط صحراء متسعة. ضيقت عيني وأرسلت نظري بعيدًا فرأيت ظلالًا لمبانٍ تتراقص من بعيد، فشهقت شهقةً فرحة، وصرخت طالبًا النجدة لكن صرخاتي لم يجبها أحد، وعاد صداها يتردد في المدى من جديد.

أمسكت الرمال كأنني أحادثها:

- من أي أرض أنتِ؟ وأين سكان المكان؟

ملأت كفي بها ونثرتها في الهواء لأسقط في غيبوبة أخرى.

تغيَّر كل شيء حولي، غموضٌ لفَّ الكون، لست أدري أين كنت ولا كيف وصلت، الوجوم يجتاح كل شيء، الأرض، السماء وحتى نسمات الهواء، نُدَف السحاب لم تكن بيضاء خالصة، بل كانت غائمة قاتمة. تيقَّنت أن تلك النحلة التي دومًا ما أمَدَّتنا بعسلها ترياقًا، أبت على نفسها حين زلَّت ولسعت بشرًا أن تُلوِّث عسلها فأغمدت سهمها في صدرها عقابًا على فعلتها لتموت كمدًا بحسرتها. أتُراها إن لم تعبأ وأكملت مسيرتها لَأَصبَح التَّرياقُ سُمًّا؟! وتلك حكمة المولى.

(٤)

الذكريات

خيط الذاكرة لا يزال ينسج الذكريات، الحزن لم يخلق من حروف في كلمة فتغشانا الشجون، الحزن يعتنقنا، يسكننا حتى نكاد نرويه بماء الأعين وهو أمر عظيم لو تعلمون.

"راضية" هي التي تُربِّت على قلوبنا، تمسح أناتنا، تجفف دمعاتنا وتواسي أشواقنا. انهالت عليها أمارات الوهن يومًا بعد يوم، فكنا نراها تخفت وتبهت، حتى تيقنا أن تلك المرأة قد استثقلت جوارحها بما خفي من أسقام وعلل، فرقدت طريحة الفراش.

أقبلت عليها متلهفًا ثم ضممتها إلى صدري ضمة، وأرسلت من عيني دمعة سبقتها ألف دمعة، ثم فاضت روحها.

ماتت أمي ولا تزال توصينا بـ"سُلاف" خيرًا، صمتٌ مطبقٌ أُسقِط في الفراغ، شيء يجذبني إلى أسفل لأغوص في نقطة كثقب أسود يبتلعني، لم يعد للبيت روحٌ وفَقَد بهجته إلى الأبد، أصبحنا أيتامًا، رحمكِ الله يا أمي!

تمزَقت خيمتنا وصرنا نُصارع العراء والريح والمطر، توضأتُ بماء عيني وصليتُ ركعتين أطلب لها الرحمة والمغفرة.

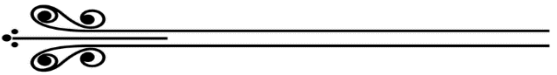

لفجيعة الفقد لا يعادلها شيء، فكيف إن فقَدْتَ من كانت تدعو لك ومن كنت تُكْرَم لأجلها؟! ها قد صرتُ وحيدًا لا شفيع لي ولا حميم، أواجه الحياة بعملي فقط.

ارتميت على قدميها أطلب منها أن تسامحني وأن تعفو عني، أن تقول لي ولو لمرة واحدة: "أنا راضية عنك، سامحتك يا ولدي".

كم أحن إلى صوتها، ضحكها وبكائها، رنين حزنها وضجيج فرحها! أشتاق إليها كلها!

ها قد فَقَدْتُ أمي التي لم أحب امرأةً كما أحببتها، نظرت إلى أبي نظرةً عميقة ودعوت الله ألَّا يريني فيه بأسًا يُبكيني، "اللهم إنك أرحم بي من نفسي، فاللهم لا تجمع عليَّ فقدين".

كانت أمي حية بروحها معنا، في كل ذكرى، خلف كل جدار في دارنا، بصمتها حين نتألم، بحزنها حين تغضب، بفرحتها حين نكبر.

صبرتْ صبر الجبال الراسيات وحملت ما أثقلها في السنين القاصمات، رحمة الله عليكِ يا أمي، لقد كنتِ الصابرة المحتسبة الثائرة الهادئة الصامتة الضاجَّة!

ماتت من كانت تحملنا على كتفها ونبكي بين يديها، من تحملت ضجيجنا وصراخنا وحملت همنا.

أهكذا تكون الحياة، حلمًا جميلًا نعيشه لتصفعنا صحوة الموت من غفلتنا؟!

ماتت تلك المُفعَمة بالحياة، كيف لها أن تنطفئ؟! من حمل وجهها بشرًا ونورًا كيف يتحول إلى غلالات أسى؟!

ليتني ما تركتكِ يا أمي! ليتني أطلت آخر حديث لنا معًا! ليتني ما تركتكِ وحيدة وبقيت في غرفتي! كم كنت عاقًّا يا أمي! كم كنت جاهلًا! اليوم يأكلني الندم وأتحرق

شوقًا لأعود إلى الأيام الخوالي، أُحادثكِ طويلًا وأُقبِّل رأسك، آكل طبختكِ وأرتشف كأس الشاي من يدك، أصبحت مثقوب الفؤاد بعدك، أخطو على أشواك الفجيعة حافيًا، كل شيء يبكيكِ يا أمي، يا من كنتِ قارورة الدار وعطرها الفواح.

لم تتأفَّف يومًا من ضيق ذات اليد ولا من قسوة الحياة، تفرح بأبسط الأشياء وترضى بأقلها ولو كانت كِسرة خبزٍ يابسة، رهيفة المشاعر شفيفة النفس، تنام كطفل وليدٍ لا تحمل في قلبها ضغينةً لأحد.

كنت أبحث عنها بين طيات ملابسها، فوق سجادة صلاتها، في موضع سجودها. أبحث عن أنفاسها، عن رائحتها بين أواني الطهي، كنت ألملم أنفاسي بين رائحة المسك ونشيجي الباكي.

في حجرة خافتة الإضاءة جلست أنتحب وحدي، أستعيد تفاصيل أمي وأيامها الأخيرة، رائحتها تتسلل إلى أنفي من كل مكان، وأخيرًا حضن دافئ محب ومواساة من والدي.

- لا تجزع يا ولدي، فأمك ستظل حية بيننا بروحها، بأثرها، بالخير الذي كانت تفعله.

شعرت بغصة في حلقي، كنت صغيرًا أظنُّ أن من يموت يصعد إلى السماء وتسكن روحه نجمة، ولكل نجمة بريق مختلف حسب روح صاحبها، تُرى أيُّ نجمة في السماء أنتِ يا أمي؟!

حين كبرت رأيتهم يُوَارُون الموتى تحت التراب في قبورٍ تحت الأرض، ولما نضجت عَرَفت ووعيت أن الروح تغادر الجسد، الجثة تُدفَن تحت التراب في حين أن الروح تصعد إلى السماوات العُلا، إلى خالقها وباريها، وكل يتخذ مكانه الذي يليق به.

البيت بدأ يزدحم بالمُعزِّين، فالراحلة غالية على الجميع، استعدَدنا لاستقبال العزاء، جيران الحي وأصدقاء العائلة وبعض المعارف، مرَّ الوقت ثقيلًا حتى انصرف الجميع.

والدي الذي بدا على وجهه التعب، وشقيقاتي اللاتي سالت دموعهن، الدار التي أصبحت خاوية على عروشها.

في المساء، اجتمعنا لتناول العشاء ولا رغبة لنا فيه من الأساس، لكننا كنا نتحايل على الحزن، خيَّم الصمت على المكان وكل منا يتحاشى النظر في وجه الآخر. كان البيت حزينًا كئيبًا والوقت مُملًّا رتيبًا، حتى صوت عقارب الساعة بدا أكثر إزعاجًا، لكن كلًّا منا كان يتظاهر بالصمود من أجل البقية.

عضَّني الندم وتزاحمت ذاكرتي بذكريات عديدة وكيف كنت فيها كلها شبحًا، كنت بعيدًا عن الجميع غير مبالٍ بأحد، وبدَوت إنسانًا فارغًا أجوفَ جاحدًا.

- اهتمِّي بسُلاف يا سلوى فهي لا تأكل.

التفتت إليَّ شقيقتي تطمئنني:

- لا تقلق يا راغب، لقد أكلت سُلاف منذ قليل طعامها، لكني آثرت أن تشاركنا المائدة حتى تتحسَّن نفسيتها.

ردَّ الوالِد:

- الله يرضى عليكِ يا ابنتي، حسنًا فعلتِ، لم يعُد لها سِوانا الآن.

كنت زاهدًا في كل شيء، مُنطوِيًا على نفسي دائمَ الشُّرود قليل الكلام، وتلك عاداتي لكنَّها أصبحت أعمق وأقوى، لم يتركني أهلي وأصدقائي وحيدًا، فبقلوب أحِبَّتك

تتجاوز محنتك، البيت الذي لا أُمَّ فيه بيت خرِبٌ موحشٌ بائس، أمي كانت طيبة، والطيبون يرحلون سريعًا، لا يَمكُثون على الأرض طويلًا.

حاولت أن أَعبُر قنطرة الحزن والأسى إلى ضفة الرضا واليقين برحمة الله ولطفه، الوقت يقترن مروره بالقلوب، فإن كانت سعيدة انفلتت حَبائله فرَّ سريعًا لطيفًا، وإذا كانت حزينة انعقدت وتجدَّلت فيَمرُّ الوقت بطيئًا كئيبًا.

تفقدتُ غرفة "سلاف" لأطمئن عليها، فتلقَّفتني وغمرت رأسها في صدري، احتضنتُها طويلًا ثم أمسكتُ بيدها وجلست على طرف فراشها، لتقع عيني على الجدار المقابل لسريرها وقد رسمت عليه لوحةً كبيرة، صُعِقتُ ووضعتُ يدي على فمي أكتم صيحةَ دهشةٍ وأنا أرى صورتي، أقفُ بين النحل وأسقيها من عسلِه وهي تبتسم لي بامتنان.

كانت الصورة تقريبًا بالحجم الطبيعي ودقة تفاصيلها أبهرتني؛ أتقنَتْ فيها "سلاف" رسم الأعين وحجم الشفاه وكثافة الشعر، حتى سماعتي الطبية تكاد تشعر أنها تتدلى من عنقي تهتز في الفراغ، ولون العسل وشكله كأنه عسل حقيقي.

الصورة في مجملها كانت لوحةً بصريةً واضحةً مكتملة، كأنني حيٌّ فيها أسكن الجدار لا أشاهده.

رحتُ أقبلها وأضم يديها إلى صدري هاتفًا:

- هل أنتِ من رسمتِ تلك اللوحة الرائعة؟

هزَّت رأسها بخجل:

- نعم.

- أنتِ فنانةٌ بارعةٌ يا سلاف، سأُقيم معرضَ رسمٍ كبيرٍ لكِ حتى يشاهد الناس جميعًا فنَّكِ ولوحاتكِ الرائعة.

دخلتُ يومها إلى غرفتي وقد أنسَتْني لوحة "سلاف" آلامي وأوجاعي كلها ومسَحَتْ عن قلبي همومي وأحزاني كلها، وعقدتُ العزم أكثر على المضي قدُمًا في تجاربي للاستشفاء بعسل النحل.

الأسْرُ وهمٌ والحريةُ قرار، الأسْرُ وهمٌ كنت أعيش فيه وأعتنقه، بل أُومِن به، والحرية قرار شجاع لم أقدر عليه ولم أستطع حتى أن أقطعه على نفسي، فوأدتُ حلمي وآنَ الأوان كي أتحرر.

على الرغم من مشاعري العميقة نحوها، فإنني كنت أرى دائمًا نظرات إعجابها تذهب إليه. كذَّبتُ عينيَّ وكذَّبتُ أذنيَّ أيضًا وأنا أسمعهما يتحاوران حول الأوضاع السياسية، لو كان الأمر محضَ إعجابٍ بالفكر، لربما كان فِكر "عمرو" يتَّسق معها أكثر فميولهما نحو القضايا الشائكة تكاد تكون متماثلة، أما "أحمد"، كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟ وأين؟ عشرات الأسئلة المحيرة التي تتطاحن في عقلي ولا إجابة شافية ولا أدري، أرغب في وصالها بكل قوة في حين أنها لا تشعر تجاهي بأي رغبة. يلتحف عقلي بذكرياتها، كل كلمة، كل همسة وكل ضحكة، ثم كان قرارها بالابتعاد، قُرب "أحمد" مني جعله يصارحني ذات يوم.

فتقدم مُتلعثمًا يتلَجلَج بالكلِم كطفلٍ يُتَهْتِه:

- راغب، أودُّ أن أخبرك بأمر.

سكت سكتة طويلة ظننْت معها أنه فقَد لسانه، كنت أعرف ما يريد قوله ولكني تركته يُكمِل متعثرًا.

- الأمر أنني... وشهد...

أشفقت عليه ولم أحقد، فقد كان "أحمد" شفَّافًا وديعًا نقيًّا، سكون المكان وأزيز صدر "أحمد" ونبضاتي الفائرة صنعت مزيجًا من حالة غريبة، اختلط الحب بالغيرة والشفقة بالحقد حتى استحالت الراحة وجثمت الحقيقة فوق الصدور والشهد على مدِّ البصر.

زاحم الماضي الجميل في عقلي ما أراه ساطعًا كالشمس توًّا، إنه يحبها وأنا على يقين أنها تبادله حبًّا بحب، استسلمت لقضاء الله، وطلبت من "أحمد" أن يتركني وحدي، فاحترم مشاعري ولكن قبل أن يرحل أمسك بقبضة يدي، ليعتصرها بين راحتَيه وهو يقول:

- أنت صديق عمري يا راغب، ولن يفرقنا شيء أبدًا.

كنت أوقن صدقه ولم أشكُكْ لحظة واحدة في دوافعه، بل كنت أحترم موقفه، ولكن في النهاية هي حكمة المولى الذي يمنَح ويمنَع، يُعطي ويَحرِم، منحني لقبَ طبيب ومنع عني حُبَّ شهد، فله الحمدُ في الأولى والآخرة.

مرَّت عشرة أيام و"أحمد" يتصل بي ولا أُجيب، تأقلمت مع الأوضاع وباركت لهما في أول لقاء جمعنا.

لقد تغير الأمر تدريجيًّا كما تغيرت أنا، وخفتت تلك الشعلة المتقدة في جوفي والتي أحرقتني بلهيبها، ليغمرني إحساس عميق بالسلام والهدوء. تغيرت أحاسيسي كما تتغير السماء، شروق وغروب، ليل ونهار، ولكنها في الأحوال جميعها سماء، وستظل سماءً مهما تعاقبت الفصول ومهما مرت السنون.

يقولون: "عليك أن تصدق نفسك أولًا، قبل أن تبحث عمن يصدقك".

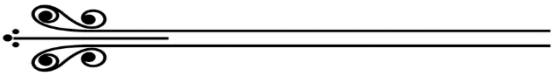

صارحني "عمرو" زميلي في المركز الطبي الذي أعمل فيه برغبته في خطبة "جنى" أختي الوسطى بعد تخرُّجنا في الجامعة، والتحاقنا بمركز أبحاث علمية. "عمرو" يعدُّ الأيام ويرسم الأحلام منتظراً ردًّا على طلبه، كان "عمرو" يتوجس مني خِيفة ويخشى رفضي.

***

أطلَّت "سلوى" من النافذة ومدَّت يدها لتختبر الطقس، المكان هادئ كالمعتاد، هناك بائع الجرائد على الناصية المقابلة لها وبجواره كشك سجائر، كانت تُعلِّق بصرها على الطريق والعربات والمارَّة، ثم تحركت ببطء نحو المطبخ وأعدت لنفسها شايًا، وجلست على أريكتها لتتصفح الجرائد كالمعتاد ومعها قلمٌ تُحدِّد به ما تبحث عنه.

ترسم دوائر حول الوظائف الخالية المطلوبة والتي قد تتناسب مع "خيري"، ليلتحق بها في المساء علَّها تُحسِّن قليلًا من وضعهما المالي.

جرائد الصباح وما تحمله من أحداث سياسية تُثير في نفسها الامتعاض، فلا سبيل إلى فهم ما يجري ولا ترابط للأحداث، والمشهد أصبح عبثيًّا بامتياز.

***

مرَّت الأيام لنُفاجأ جميعًا بخبر اختفاء "شهد". تصاعد رنين هاتفي النقال وكان الصوت لـ"أحمد":

- كيف حالك يا راغب؟

- بخير الحمد لله، هل ما يتردَّد صحيح؟

- نعم، لقد ذهبت شهد في زيارة لأهلها وانقطع الاتصال بها تمامًا.

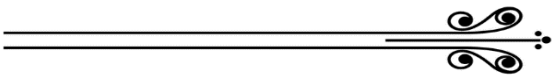

- لن ينفع الكلام في الهاتف، لا بد أن نتحدث ولتصحب عمرو معك.

واجتمعنا أنا و"عمرو" و"أحمد"، بدا "أحمد" متوترًا جدًّا، في حين كنتُ أُطمئنه ومعي "عمرو".

- ستظهر إن شاء الله يا أحمد، اطمئن.

تحرك "أحمد" بقامته الطويلة وملامحه الذابلة، فيما ارتد عمرو إلى مجلسه متثاقلًا.

- لقد كانت على اتصال دائم معي، وآخر مرة كانت عند أحد الحواجز الأمنية بعدها.

سكت "أحمد" ثم كوَّر قبضته وضرب بها سطح المكتب أمامه، أشاح بنظره بعيدًا وظهر الحزن على ملامحه وصاح:

- لا بد أنَّهم اعتقلوها أو قَتلوها.

طعنتنا كلمات "أحمد" في سُوَيداء قلوبنا، فقد كان خائر القُوى هزيل الجسم زائغ العينين يتملكه اليأس، ظلَّ يهذي وهو يدور في الغرفة كمن أصابه مسٌّ ثم هتف ودموعه تنفجر:

- لقد ضاعت شهد!

حاولنا تهدئته، وبعد عدَّة ساعات تأكَّد لنا نبأ أسرِها.

كانت نظراتنا تتنقل بين ثَلاثَتِنا كأنها قضبان حديدية، فجميعنا أسير، البيت أسر، الشارع أسر، الجامعة أسر، العمل أسر، الحياة أسر، جميعنا مأسور بطريقة أو بأخرى، فمتى يحين الخلاص؟!

داخل الحرم الجامعي وقفت طويلًا أمام صورتها، أمام تلك العينين الحزينتين والوجه الذي تكسوه المرارات، صورة حزينة وتعليق غاضب #الحرية_للمعتقلات، صورة ثانية

وثالثة ورابعة، الوجه يواصل إطلالته الصامدة والصامتة، والغضب الزاحف من الكلمات بوسوم متعددة يتواصل: #خرجوا_البنات #سجينات_الرأي #حبسك_عار.

كنا جميعا نتساءل: ما الذي فعلته "شهد" لتعتقل؟ بل ما الذي لم تفعله لتنتصر؟

الحقيقة واضحة، يكاد سنا برقها يخطف الأبصار.

الخوف والحب شعوران لا يجتمعان في قلب واحد، فالحب يغلب الخوف.

- لست مستعدًّا للذهاب.

أجبتُهم، كنت أتحدث بهيستيرية وقد أصابني هلَع من الفكرة.

صاح "أحمد" وهو يُحدِّق إلى عيني:

- ستتخلَّى عنا؟!

مرَّت لحظات ثقيلة وما زلت مرتبكًا متردِّدًا كعادتي.

سأل" عمرو" بذهول:

- وماذا سنفعل؟ لا بد أن نجد مخرجًا وسنجده بأمر الله.

كان "عمرو" يتحدث وعيناه مثبَّتتان على وجه "أحمد"، يخشى عليه من الجنون، في تلك اللحظة صدح أذان الفجر لتغشانا السكينة وتحط علينا رحمات الله.

مواسم الكآبة التي تعتريك، وتلك المقادير التي سخطت عليها وجزعت منها حتى باتت نكدًا وهمًّا، أورَثتك اكتئابًا يقتات عليك وتحيا مواسمها باقتدار.

فإن أورثت قلبك خبيئةً صَدَق وبسطت يد العون لأحدهم، أو كنت يومًا ابتسامة محزون، فُرجة مكروب، دفء بردان أو ريَّ عطشان، نظرة حانية أو لفتة باسمة.

ضِلع من صدرك يتوكَّأ عليه أحدهم، قطعة من روحك، تشعر بمُصابه، تواسيه وتؤازره.

هنا فقط تُراوغ الكآبة حين تدسُّ في أذن أحدهم حياة، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

"أحمد" الذي جلس في حزن صامت واضعًا رأسه بين يديه ثم راح يعتصره، طال به الصمت وطال بنا الخوف عليه.

ثمة صمت يخترقنا، بل نخترق منه، صمت لا بد أن نحسه حتى نعرف معنى الغصة التي نشعر بها إن نطقنا تلك الكلمات المجروحة الخارجة من ظلامه وظلماته.

أضغاث الماضي التي تراوده عن نفسه كل حين بتفاصيلها المؤلمة، كمن يقتات على الوهم وضعفٍ كاد يُدمِّره، أنفاسه تسبق خطواته، ذاكرته تستعيد كل التفاصيل السابقة، بل تكرِّرها مرةً تلو مرة، الحقيقة إنه شخص نرجسي عاش لنفسه فقط، الحقيقة التي كانت مختفية حتى عنه، لا، بل ربما كان يعرفها الجميع إلا هو.

"راغب" الذي كان مُتردِّدًا يقف في المنتصف دائمًا، نصف ابن، نصف أخ، نصف صديق، نصف حبيب واليوم نصف بطل.

أعتمت الدروب ليَمشي على غير هُدى، وأظلمت السبُل ليَسير بلا دليل حتى ضل، ترك النضال والمظاهرات، ترك "شهد" و"أحمد" وسار بجانب الحائط، بل داخله، لا يهمه من العالم سِوى نفسه وفقط.

كان معصوب العينين، ركض، صرخ وعاد من جديد، فما حدث كان مخاض مُحارِب، لِيَلكز فيه روح المروءة، مرت به دروب الأرض وتعرجاتها، دارت به دوائرها ومنحنياتها.

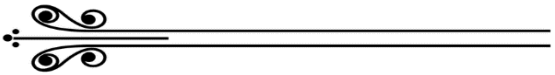

ثوانٍ معدوداتٍ هنَّ الفارقات بين الموت والحياة، بين الغرق والنجاة، بين القوة والضعف، بين الخوف والأمان. الحقيقة التي لا تقبلُ الشك، مهما ادَّعيْنا ومهما تظاهرنا، مهما حاولنا التناسي بعد المآسي لن يمكننا النسيان أبدًا.

كان يحمل خيباته كلها جملةً واحدة، هل يستطيع تجاوز الأمر؟ هل يقدر على أن يكمل حياته بجراحٍ لم تبرأ بعد ونيران صدره براكينُ خامدةٌ قد تثور في أي وقت؟! هي الوحيدةُ التي نَقلتهُ من جزيرته المهددة بالاشتعال وحملته إلى أرض الأمان، من أرض الخوف إلى كوكبِ السَّلام، وضعَته في مواجهة نفسه، لينتقل من ماضيه المظلم إلى حاضرٍ مبصر، لا يدري ما استحال من ماضيه وما تراءى من حاضره، أيهما حقيقة وأيهما خيال. تداخلت الأشياء، لكن ما أحسَّ به للتو كان الحقيقة الساطعة التي لا تقبل الشك، لقد وُلِد من جديد كأنما أُلصِق به شخصٌ آخر وذاب فيه تمامًا حتى صار عصفورًا حرًّا طليقًا يطير بجناحين أحدهما: ذكرياته المؤلمة، والآخر مستقبلٌ يريدُ به تصحيح ما فات. لتسقط كل الأقنعة وتتحطم كل النظارات السوداء فيغدو الكون أجمل، سماءٌ غير السماء، شمسٌ غير الشمس، قمرٌ غير القمر وأرضٌ جديدة، ثَغرٌ يعرف الابتسام بعد سنوات من الوُجوم، تقاسيمُ ظهرتْ عليها السعادة بعد قرونٍ من العبوس، رموشٌ علِقت بها دموعُ ودٍّ وامتنانٍ بعد ليالٍ نزفت دموعًا حارقات، وأملًا يولد من جديد، دنيا كأنها جنة كل ما فيها كأنَّه خُلِق من جديد، كيف تُدرك النعيم إن لم تلسعك أسواط الجحيم؟!

شهد

في سجون الاحتلال فتاةٌ ثائرةٌ متمردة، انتُزِعت من خِدرها لتبقى في غياهب الظلمات، لتجرب أنواع التعذيب الوحشي كافة وتشهد كل يوم سقوط شابٍّ أو فتاةٍ من رفقتها.

كنت أشعر بالخِزي إذ نَجَوت ومات كثيرون ممن تجاسروا مثلي أن يقولوا "لا"، وقد قال الآخرون "نعم"، تلك كانت جريرتنا وها هي ذي خطيئتنا، الوجع يكاد يقتلني ويطاردني شعور بالذنب كلما تذكرت أنه كان يجب أن أموت معهم حين ماتوا وأرحل إلى حيث رحلوا، لكنَّها أقدارنا مرسومة بِيَد الخالق لا تبديل عنها ولا تحريف.

حينما وصلتُ إلى معبر رفح تنسمت رذاذ عبير غزة، "غزة العزة!"، إي وربي قلتها وأنا أرفع رأسي بشموخ، لكن عتمات الواقع تكاد تخنق نور قلبي الذي يتقد كجمرة مشتعلة، فترتعش الشفاه حسرة صامتة ينفد منها رحيق الحياة، سرعان ما تستبدل بشهقة رجاء ربما... ربما... ربما القادم أفضل!

كان الجميع في الحافلة ينتظر الوقت الذي يمر بطيئًا ثقيلًا رتيبًا، معبر امتلأ بأنفاس العابرين الملولة وشغفهم بما تبقى من وطن.

عُدت إلى غزة ذات صباح تستقبلني الأرض ذاتها والسماء ذاتها، السماء واحدة في كل مكان لكنَّ سماء غزة غير سماء القاهرة، سماء غزة متسعة لا تكاد تنتهي، لونها أكثر زُرقة وصفاؤها أكثر نعومة، لكنها ملتهبة كما الأحداث تحت صفحتها، اليوم صَحْو مُشمِس وعند الحدود وعبر حاجز التفتيش تبيَّن للجندي الإسرائيلي من خلال حاسوبه أن اسمي مُدرَج على قائمة الترقُّب. ليست المرة الأولى التي أُعتقَل فيها، لكنها المرة الأطول، فالاعتقال مرادف للموت والعذاب، المفترض أن أكون خائفة لكنني لم أكُن أشعر بخوف، بل كان يحيطني فراغٌ قاس.

توجَّه بي جنديان إلى مركز للتفتيش وأجبراني على الركوع، بينما أحدهما يُكبِّل يديَّ خلف ظهري وضع الآخر عصابةً على عيني، وبعد التأكد من جَدولة اسمي في قائمة الترقُّب ألقيا بي في مؤخرة سيارة. بدأت الخواطر تجول في عقلي، ماذا سيفعلون بي؟ وكم من الوقت سأمضي هنا؟ ثم دراستي ومستقبلي التعليمي! وقد كانت تفصلني بضعة أسابيع عن امتحانات نهاية العام، تُرى ما هو مصيري؟

كان الصمت والدعاء كل ما أملك.

في السجن، حيث الجدران مُشبَّعة بالعرق والقَيْء وكثير من الدماء، أضع يدي على قلبي دائمًا، وخطاب "أحمد" بين طيَّات ثيابي، أتحسَّسه وأتشبَّث بدفئه علَّه يهبني بعض دفئه وسط برودة المكان وصقيع جدران الزنزانة.

"أكتب اسمكِ فأخبئه بين الحروف، تلك التي جبرتني بعد كسر، وقوَّتْني بعد ضعف، وأمَّنَتْني بعد خوف، ووجدتني بعد فقد. كنت أكتب وراء كل حرف معنى، فكتبته حرفًا حرفًا، لتقرئيه دفعة واحدة وإن كانت ثقيلة وإن كانت بعيدة.

فلَكِ الحقيقة ولي المجاز، كما كان لكِ المتنُ ولِيَ الحواش.

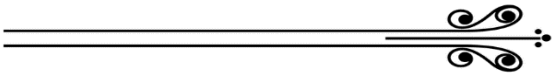

ثم متى يشاء الله فسنجتمع بلا منطق ولا ترتيب، وإنه إن أراد لشتاتنا أن يلتئم فهو عليه يسير".

ضممتُ خطاب "أحمد" بين يديّ، قربته إلى صدري وبكيت، أطلقت العنان للذكريات تطوف برأسي، لتتراءى لي تفاصيل ما حدث غير ذات بعيد، وهرعت الذكريات تَتالى علي.

"سجِّل أنا عربي

ورقم بطاقتي خمسون ألف

وأطفالي ثمانية وتاسعهم سيأتي بعد صَيف

فهل تغضب؟

سجِّل أنا عربي.. أنا اسمٌ بلا لقب

صَبورٌ في بلادٍ كلُّ ما فيها يعيش بفَوْرة الغضب

جذوري قبل ميلاد الزمان رَسَت.. وقبل تفتُّح الحِقَب

قبل السرْو والزيتون.. وقبل ترعرع العشب

أبي.. من أُسرة المحراث.. لا من سادةٍ نُجِب

وجدِّي كان فلاحًا بلا حسب ولا نسب

يُعلِّمني شموخ الشمسِ قبل قراءةِ الكتب

وبيتي كُوخ ناطور.. من الأعواد والقصب

فهل تُرضِيكَ منزلتي؟! أنا اسمٌ بلا لقب

سجِّل.. أنا عربي

سلبت كُرومَ أجدادي

وأرضًا كنت أفلحها

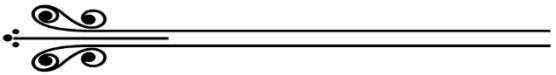

أنا وجميع أولادي ولم تترك لنا.. ولكل أحفادي

سِوى هذي الصخور

فهل ستأخذها حكومتكم كما قيل؟

سجِّل.. أنا عربي

ولون الشعر فَحْمِي.. ولون العين بُنِّي

وميزاتي:

على رأسي عِقالٌ فوق كوفية

وكفِّي صَلبة كالصَّخر تَخمشُ من يُلامِسها

وعنواني:

أنا من خِربة عزلاء مَنسِيَّة.. شوارعها بلا أسماء

وكل رجالها.. في الحقل والمحجر

فهل تغضب؟

إذًا سجِّل برأس الصفحة الأولى

أنا لا أكره الأسماء.. ولا أسطو على أحد

ولكني إذا ما جُعت آكل لحم مُغتصبي

حَذارِ.. حَذارِ.. من جوعي ومن غضبي"

ـ محمود درويش

كان منزل عائلتي يقع على أطراف خان يونس، وهو مُخيَّم كبير في رفح الفلسطينية، التي تقع في قطاع غزة التابع للسلطة الفلسطينية [٢١]. نزَح إليها كثير من الفلسطينيين بعد نكبة العام الثامن والأربعين ونكسة السابع والستين، وكنا منهم.

طافت بي الذكريات بين جُدران زنزانتي الباردة، يوم حكى لي والدي عما حدث بعد النكبة حين قرر الاحتلال إطلاق يد العصابات الصهيونية "الهاجاناه" [٢٢]، التي كانت تتعامل بالسلاح الأبيض وتتلذَّذ بذبح الفلسطينيين العُزَّل الذين رفضوا التهجير بعد المجازر الوحشية المُتعاقِبة وقرَّروا البقاء والتشبُّث بأرضهم حتى آخر رمق. وعصابات أخرى مثل "إرجون وشتيرن" [٢٣] التي كانت مُوَكَّلة بذبح الأطفال، لتسيل دماؤهم الطاهرة تروي شوارع القرى وأزقَّتها، قُرى أُحرِقت بمن فيها، بيوت جُرِّفت بأهلها، نساء ترمَّلن، عدو انتَهك الأرض والأعراض. حكى أيضًا كيف كان يركض في القرية باحثًا عن أمه وعائلته، سماعات تصدح بعويل أليم، صوتُ الرَّصاصِ ونيران الطائراتِ كالحمم في كل مكان.

لم أكن أرى في وطني سوى الهَراوى وفوهات البنادق، طفولتي كلها قصف – قنابل – صواريخ – دبابات – طائرات مروحية – آلات عسكرية وجنود احتلال. كنا نصحو وننام على صوت القنابل، ربما يلزمني قلب أكبر كي يسع كل هذا الحزن والألم.

---

(٢١) تبعد رفح عن القدس مئة وسبعة كيلومترًا جنوب غربها، ومساحتها خمس وخمسون كيلومترًا مربعًا، وعدد سكانها حوالي مئة وعشرين ألف نسمة وفيها ثمانية مخيمات: جباليا – الشاطئ – رفح – المغازي – النصيرات – دير البلح – البريج وخان يونس. [موقع: ويكيبيديا].

(٢٢) الهاجاناه: عصابات صهيونية مسلحة.

(٢٣) إرجون وشتيرن: عصابات تذبح الأطفال الفلسطينيين.

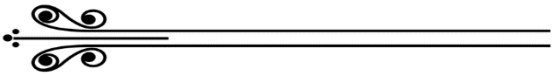

تذكرت ما رواه أبي حين كنا نلتف حوله في المساءات الباردة ونتحلق حول المدفأة ليحكي لنا حكايا القرى، كان رجلًا سمينًا بشرته البيضاء قد تشربت بحمرة، خطَّ الزمان على وجهه تجاعيد عديدة، قال لنا:

"لن أنسى معركة الكرامة في اليوم الحادي والعشرين من آذار عام ١٩٦٨، حينما انتشرت أخبار انتصار الفدائيين ووحدات الجيش الأردني التي تمردت على قيادتها وخاضت معركة ضد الإسرائيليين.

أتعلمون ما كانوا يقولونه حينما احتلوا أرضنا؟ كانوا يقولون: (إن بلادكم صحراء جرداء، ونحن سنجعلها جنة). لكن فلسطين يا أولادي دائمًا جنة الله في أرضه وهم من يحاربون الله ويحولون جنته إلى صحراء، قاتلهم الله أينما وجدوا!

بعد احتلال الضفة الغربية بثلاثة عشر عامًا، كنا ما نزال نسمع عن مبادرات السلام التي أصبح عدُّها أمرًا صعبًا كما صار أصعب أن نعود إلى بيوتنا التي هُجِّرونا منها، والآن لم يعد المرء يعلم متى يُعتَقل كما أنه لا يعلم متى يموت".

تكوَّمتُ في رُكن زنزانتي أستغفر، فالليل طويلٌ صامتٌ لم يقطعه سِوى وقع أقدامِ السَّجَّان، ليدير مفتاحه في باب الزنزانة ويطل عليَّ بقامته الفارعة ودخان سيجارته قد عبَّقَ أركان المكان. نظر إليَّ نظرة طويلة كأنما يقرأ تاريخ حياتي كلها وحانت منه التفاتة عبر النافذة، ليهتف وهو ينظر بعيدًا في الفضاء:

- لقد التُقِطَت لكِ عدَّة صور في أثناء اشتراكك في مظاهرات، كما وردتْنا معلومات عن انضمامكِ إلى جماعات مُسلَّحة.

لم يتلقَّ مني أي رد، فقط ابتسامةٌ ساخرةٌ رسمتُها بلا اكتراث، كان رجلًا قد بلغ الأربعين أو كاد، ووجَّه إليَّ عديدًا من الأسئلة التي قابلتها بصمتٍ تام.

احتقن وجهه وهو يُحدِّق إلى ملامحي العنيدة وقد تسمرت نظراته.

- من أي تنظيم أنت؟

لم تُبارح مُخيِّلتي صورة أمي وأنا أتخيَّل مشاعرها حين يَصلها خبر إلقاءِ القبض علي، لم يرحموا ضعفي وجسمي الهزيل، بشرتي الشاحبة وعينيَّ الغائرتين.

أردف السجانُ قبل أن يغادر وقد شاب صوته غيظٌ مكتومٌ:

- ستموتين هنا، لن يتذكركِ أحدٌ ولن تصيري أيقونةَ نضالٍ كما تخططين.

حروفه التي كان يكرُّ عليها ذابت في الهواء، في حين بقيتُ أنا غير عابئةٍ بما يقول، فأنا على يقين أن الحياة مهما طالت قصيرة وأننا على سفر، والموتُ عبورٌ إلى الضفة الأخرى ليس إلا.

في خلال جولات التحقيق، تبادل المحققون الأدوار ببراعة، كانوا يبقونني مُستيقظةً أربعًا وعشرين ساعة متواصلة بلا نوم، يتناوبون استجوابي في حُجرة ضيقة مُسيَّجة بأسلاك معدنية، أشعر بالجوع والظمأ ينهشان معدتي ومزيد من الأسئلة والضربات والصفعات، كنت أترنَّح على كرسي معدني وضابط آخر يخاطبني ملوِّحًا بإصبعٍ حازمة، يسبُّني بأقذع الألفاظ قبل أن ينصرف مزبدًا.

لست أدري كم الساعة الآن! أليلًا أم نهارًا؟! ومع صمتي المُطْبق توتَّرتْ أعصابه فتركني وخرج إلى الرواق.

أرخَيت ظهري المتعب من الانتصاب رَهبةً بعد رحيلهم، تذكَّرت كم كنت أستمتع بالسير في أطراف القرية صباحًا أيام الخميس، وحين أتعب أجلس على حجرٍ وأُمتِّع ناظريَّ بالأُفق الممتد حيث تتناثر الجبال، السماء التي مالت تحتضن الأرض من بعيد وزُرقتها تتشح بأفقٍ أبيض، أما الشمس القابعة في كبد السماء فكانت تعانق الجبالَ وما تلبث أن

تختبئ خلفها كأنها تتوارى عن الأعين بعد أن أشعلت الكون حرارةً ولهيبًا، الهواء الذي كان يصفع وجنتيَّ ويعبث بثيابي الفضفاضة، أنهلُ من الطبيعة ما أستعين به على شَقاء أيامي ومعركتي الأبدية مع من اغتَصب الأرض واستحلَّ الوطن.

في المساحات الصغيرة، تتسع الذاكرة وتتسارع الذكريات.

أغمضت عيني لأنتزع تلك التفاصيل من أعماقي، أتذكر تلك الأيام، نعم، أيام الجُمَع، كنا لا ننام بعد صلاة الفجر، إذ تعد أمي الكسكس ونجهز أنا وأختي "غادة" دلات القهوة التي يحملها أخي "عمار" إلى باب المسجد عقب صلاة (الجمعة) ويوزعها أبي على الجميع مع أطباق الكسكس الساخن.

يقولون: "في الخليل لا أحد يجوع أبدًا"، فالطعام يوزع في الشوارع وعند المساجد وفي الأزقة والحواري، وكنا نجد أن المدن والقرى كلها كالخليل.

تذمرت أختي يومًا من الاستيقاظ مبكرًا، وصرخت في وجه أمي:

- اتركوني أنام، فلا طاقة عندي لطهي ولا جلي.

في حين تتحرك أمي كفراشة في باحة المنزل الخلفية، تمسك بشال أبي وتثبته على الحبل وبجانبه حجاب "غادة" تطوحه الرياح التي تأخذ وجه أمي بعيدًا حتى قمم الجبال فأراها شاردة.

- أنا في خدمتك يا أمي.

داعبتُها مطيبة خاطرها.

كنا لا نرى أخي "عمار" إلا مدة قصيرة في اليوم منذ انضمامه إلى الفدائيين، الأعراس عندنا مرتبطة بموسم الحصاد حتى تكون فرحتنا فرحتين، فرحة بالعرس والزواج وفرحة بقطف الثمار.

- لننتظر جمع الزيتون.

هكذا قال والدي للجاهة [٢٤] من أهل العريس حين تقدم أحدهم طالبًا القرب.

كان لـ"غادة" عينان خضراوان كشجر الزيتون وشعر كستنائي ولها ملامح دقيقة كطائر كناري، أما أنا فقد توسم أبي فيَّ خيرًا ورفض طلب عمي بزواجي ابنَه "فضل"، وقال له:

- بنتي ستتعلم وتصبح طبيبة.

نهره عمي بفزع:

- سترة البنت أولى يا خوي.

- لكنها ليست كأي بنت، إنها الدكتورة شهد.

- البنات على قفا من يشيل، اشبع بها!

قالها عمي قبل أن يغادر مع ولده.

ضمني أبي بعطف مطيبًا خاطري:

- على رموش عيني سأرقص يوم نجاحك يا غالية.

---

(٢٤) الجاهة: الرجال من أهل العريس من كبار العائلة، يطلبون يد العروس ويتفقون على تفاصيل الزواج، ويكون عددهم سبعة بالتقريب.

وجهًا لوجه وجدت نفسي أمام تلك العينين الضيقتين والملامح المتغضنة رغم ما يدعي من خفة ظل، إنه "فضل" ابن عمي وكنت ألعب السيجة [٢٥] مع شقيقتي "غادة"، التي غادرت مسرعة لتجيب نداء أمي من المطبخ.

حدَّق إليَّ وراح يعتصر جبهته بأنامله واقترب يتودد إليَّ رغم صدِّي ورفضي إياه.

- ماذا لو تمنحينني فرصةً أخرى يا ابنة عمي؟

صمتٌ طويلٌ وعيناي تسبحان في فراغ لا منتهى له، حتى إذا استطال الصمت بيننا وطال الأمر تابع باستظراف متعمد:

- السكوت علامة الرضا.

أجبته بحدة:

- السكوت هنا علامة الغصة، سكوت لا يحتمل إلا معنى واحدًا، أن هناك كلمات مذبوحة لن تنطق.

كانت صدمتي فيه كبيرة، إذ تردد بين أقرانه أنه على علاقة بابنة أحد جنرالات جيش الاحتلال، وأنها تستدرجه لتعرف منه أخبار المقاومة.

مسحَ الذهولَ عن وجهه بكفين مرتعشتين ضائعتين ومضى تلاحقه نظراتي الحارقة.

ذات يوم جلسنا حول أبي يحكي، كانت يداه ترتعشان وحلقه مكتوم كأنه محشو بألف غصة:

---

(٢٥) السيجة: لعبة شعبية تستخدم فيها الحجارة، تشبه لعبة الشطرنج، لها أبطال وتُحفَر رقعتها على الصخر أو الرمل أو تُرسَم، وأصبحت فيما بعد تطبيقًا على الكمبيوتر.

- منذ انطلاق الانتفاضة الأولى وحظر التجوال مستمرٌّ لا يكاد ينتهي، فراغ في الشوارع وهدوء قاتل، لا أحد يخرج ليلًا إلا للضرورة القصوى. ما بين مغيب الشمس ومشرقها تُتْرَك القرى والمدن للجان الشعبية، وحينما تنبهت سلطات الاحتلال إلى خطورتها ضيَّقت عليها وطاردت أعضاءها واعتبرتهم خارجين عن القانون، وفرضت عقوبة بالسجن عشرة أعوام على كل من يثبت انتماؤه إليها أو من يحمل بياناتها أو منشوراتها.

كنت أكبرُ في غفلةٍ من الزَّمان حتى اجتزت الثانوية العامة والتحقت بكلية الطب وذهبت للدراسة في القاهرة، مجتمعٌ جديدٌ لم أعرفه من قبل، ازدادت الهُوَّة أمامي مع الماضي، وها هي ملامحُ القريةِ تتلاشى، أَنخرط بل أذوب في زحام المدن، أتلاشى في طوفانها الصاخب وضجيجها المستمر لكن لا طعم للحياة هنا، كل شيءٍ مذاقه مختلف ونكهته متغيرة، لكني كنتُ أتَّخِذ من صور الطبيعة والجمالاتِ المتناثرة هنا وهناك بِوَصْلة تُهديني الرضا وتُشعِرني بالثبات واليقين.

من رَحِم الحياة تُولَد الأمنيات، البدايات، الذكريات، تُولَد اللقاءات ولننتظر النهايات.

أنا أَصبح الوطنُ يَسكنني ولم أَعُد أسكنه، أحمله بين ضلوعي، فعلى أرضه الصلبة رسخت جذوري وبين صخوره حُفِر عمري، كيف استطاعت أرض بحجرها وشجرها، بصخورها وصخرها أن تَسكُبه داخلها، ليَفِيض حبًّا في العروق؟! وهواء تحمل ذراته أنفاسًا ثالثة لمحتلٍّ بغيضٍ احتلَّ الأرض غصبًا وقهرًا.

وفي مِحرابِ الجامعة التقَيْت "راغب"، في البداية كنت أظنُّ أن ما بيننا توافقًا وسيتدرَّج بمرور الوقت إلى أُلفة، لكن سرعان ما انكشف الاختلاف الكبير والهُوَّة المتَّسعة بيننا، بعدها عرفت "أحمد" وكان الشمس التي سطعت في حياتي فأمدَّتني بالنور والدفء والحياة، كنت أملأُ عينيَّ منه كل صباح، لم أكن أُفكر في الحب والارتباط كأي فتاة طبيعية، كانت أفكاري مختلفة وطبيعتي مغايرة لهن، الوخزة التي شعرت بها

في قلبي حين رأيت "أحمد" أول مرة -الشاب الذي رحل والده فتحمَّل مسؤولية أسرته من بعده- جعلتني أُشفِق عليه إذ كبُر قبل الأوان، كنت أعرف أن الطيور تحطُّ فوق الأيدي التي امتلأت بالحبِّ وتقف على أكتاف من يُلقون إليها به.

تذكرت يوم أن بدأت السماء تهطل بغزارة، كنت أركضُ محاولة تفادي زخَّاتها المتعاقبة ما استطعت، وقفت تحت مظلَّة إحدى الحافلات محاولة التقاط أنفاسي اللاهثة، الطلبة يُهَروِلون في كل الاتجاهات، كلٌّ يبحث عن مكان ليَحتمِي، المطر يتحكم في رسم خطوط لوحةٍ مبهجةٍ من الطبيعة، لمحت "أحمد" يتقدم نحوي قاصدًا المكان الذي به احتميت، وقف إلى جانبي يلهث بعد ركضٍ طويلٍ يرتجفُ من البرد وحانت مني التفاتة خاطفة إلى وجهه فعرفته، ابتسمت وألقيت السلام عليه وكنَّا قد التقينا مرة قبلها، فابتسم مُرحِّبًا:

- مرحبًا شهد.

- أهلًا أحمد.

- المطر كثير اليوم.

- نعم، الله المستعان.

- هل انتهت محاضراتكِ؟

ابتسمت بخجلٍ إذ إن المساحة التي تَقينا المطر أجبرتنا على شِبْه التصاق، واستحوذ القلق على نفسي، تصلَّبَت كل خلية في جسمي النحيل، كنت شاردةً حتى إن "أحمد" أعاد السؤال عليَّ مرةً أخرى، كنت أنتفض وأسناني يصطَكُّ بعضها ببعض والحروف تخرج مرتجفة من شدَّة البرد، حتى إني لم أقوَ على الردِّ فأومأت برأسي أن قَدِ انتهت. وعلى الرغم مما يعانيه "أحمد"، فإنه فاجأني، فقد خَلَع معطفه ونفَضه بطريقة لطيفة وألبسني

إياه، ورأيت في عينيه لحظتها شيئًا ما، كنت أراه في عَيْنَي والدي وأخي الأكبر، رأيت رجلًا تنمو من تحت قدمَيْه الصلابة والصمود، وتزهو ينابيع العِزَّة والكرامة فوق جبينه، وعلى صفحة وجهه ارتسم الانتصار، تمتمتُ بحروفِ شُكرٍ لا تُكافئ ما بثَّني من دفء، لا بفعل المعطف وقربه، بل من إحساسٍ سرى بيننا فغزا قلبي مباشرة وبلا سابق إنذار. كان حبًّا لكل ما يحتويه الوطن، وبعيدًا وفي غربة وطنٍ آخر كان "أحمد" أخًا، أبًا، سكنًا، دربًا ورجلًا، وكان الحبيب.

الكونُ يُزهِرُ في الربيع، بل يُزهِر كل شيء، أما أنا فقد أزهرتُ في الشتاء حدائقَ ذات بهجةٍ ورودها في حلمٍ مُؤجَّلٍ إلى يومٍ تتعانق فيه الأبصار، لم أدرِ ماذا يُسمَّى شعوري وقتها لكنه مَنَحَني فضاءً مُطلقًا من الحرية التي أبحث عنها حيثُ أطيرُ بلا حدود.

وكان الصبر عكازة المحب على لَهْف الاشتياق وإن غاص في الحنين، ما كان يُعكِّر صفوَ أيامي هو تعلُّق "راغب" بي وارتباطنا الواهي، فحسمتُ أمري وعزمت على إنهاء ذلك الوضع، فالشفقة وحدها لا تصنع الحب.

رأيت "أحمد" طيِّب الأفعال، نقيَّ السريرة وعظيم الخصال، وتقاربنا حتى امتزجنا، كان في عروقي يجري وفي أوردتي يَسري، كان يقين الوجد الذي اكتفى منا، فلا شفاء لنا ولو كنا رُفاتًا. كان "أحمد" مُتحمِّسًا للقضية أكثر مني، كانت الجامعة تغلي عن بَكرَة أبيها، وقد أزكمت الأنوفَ رائحةُ الخيانة، فالقدسُ تُباعُ على مرأى ومسمعٍ من العالم ولا حياة لمن تنادي، الهتافات تتعالى والقلوبُ تغْلي في الصدور على مراجل من غضب، إنها فورةُ الشباب وحَموَته، هِبَة عفوية للوطن المغدور والشعب المذبوح، كنا نلتفُّ حول ذات الفكرة، لتندلع شرارة الحماس وترتجُّ جدرانُ الجامعةِ مع هتافات المتظاهرين.

خيبر خيبر يا يهود.. جيشُ محمد سوف يعود

فلسطين عربية.. بالروح بالدم نفديك يا أقصى

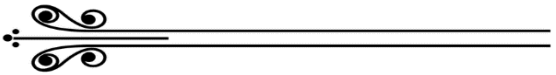

الأقصى الذي كان مصدر فخرٍ لنا، لم ندرِ كيف صرنا نفخر بالدفاع عنه وعلى أرضه عَزَّ الانتماء، إذ الرحيل نجاة والصمود موت، وطن استعمره الخسيس فانتفض من مُحتلِّيه وقاوم ولو بحصى الأرض.

الاحتلال القابعُ فوق صدرونا سيزول يومًا، ستحين فرصة الخلاص بأمر الله، فالصبر والصمود من أدوات النصر والجهاد حتى الموت أسمى أمانينا، وكما يقولون: "لا يفل الحديد إلا الحديد"، معركتنا مع العدو قائمة كر وفر. سرت الأنباء في الجامعة مسرى النار في الهشيم، بل تخطت أسوار الجامعة، تهامست بها الطالبات وتلقفها الشباب بقلق وغضب.

قوة غامضة حفَّت بنا، ومع تلاحُم مجاميع الطلاب والطالبات، كانت الغضبة عارمة وبدأ يتسارعُ إيقاع الهتاف بما تهفو له الأفئدة قبل الآذان، فترتضيه القلوب قبل العقول، ثورةٌ جائعة للخلاص، تحلم بالحرية.

الأوداج تنتفخ بالشعارات والوجوه تحمر، الهتافاتُ صارخة، وها هي يد الموت تمتدُّ من كل مكان حتى في ساحات الحرم الجامعي، القوات تُداهم المكان مُصطَحِبة معها آلات القتل والقمع والزجر، غازات مسيلة للدموع وبنادق الرصاص المطَّاطِي وبعض دبابات الجيش والرصاص الحي، قُتِل من قُتِل في مجزرةٍ مُروِّعة، واعتُقِل من اعتُقِل، الجميع يركض لاهثًا يبحث عن النجاة، لكن العسكر يلاحقونهم في جنبات الجامعة حتى غُرفِ المحاضرات.

اعتُقِل "راغب" و"أحمد" ونجا "عمرو" وفررتُ إلى أحدِ المباني الملاصقة للجامعة، التجربة كانت مريرة وغُرِست خناجرها في الحُلوق، والظلام رغم سطوته لا يستطيع أن يهزم نور القلب. (٢٦)

عشر خطوات كانت تفصله عنها، قطع نصفها وتوقف مترددًا بين مواجهة وعتاب، من بين كل أفراد العائلة كان نبته مختلفًا، حانقًا على كل شيء، كارهًا كل شيء، الأرض، الحجر، الجبال، يتشاجر مع كل شيء حوله حتى أوراق الأشجار.

---

(٢٦) إرهاصات الانتفاضة كانت كثيرةً ومتراكمة، لكن شرارة الانطلاق كانت في ٨ ديسمبر ١٩٨٧، حينما أقدمت آلية عسكرية إسرائيلية على دهس مجموعة من العمال الفلسطينيين أمام حاجز بيت حانون (إيرز) بصورة متعمدة، فاستُشهِد إثر هذه الحادثة خمسة وأصيب سبعة، جميعهم من مخيم جباليا للاجئين (أكثر مخيمات غزة ازدحامًا بالسكان). فكانت ثورة الغضب التي سُرعان ما انتشرت في أنحاء قطاع غزة جميعه، خصوصًا في اليوم التالي عقب تشييع جثامين الشهداء، وما هي إلا ساعات حتى امتدّت الشرارة إلى مدن ومخيّمات الضفة الغربية، فخرجت المظاهرات الغاضبة من كل مكان، وسط ذهول وصدمة سيطرت على إسرائيل، فاضطر رئيس وزرائها في ذلك الحين "إسحاق شامير" إلى قطع زيارة خارجية كان يقوم بها لكي يقف على حقيقة ما يجري، والتطور الكبير الذي لم يكن في الحسبان.
وعلى الرغم من أن الثورة التي أشعلها الفلسطينيون كانت شعبية، ولم يُستخدم فيها السلاح، فإن الجيش الإسرائيلي تعامل معها بكل قسوة، وأصدر قادته الأوامر بوقفها بكل الطرق الممكنة، فبدأت الطائرات بإلقاء القنابل الدخانية والمُسيلة للدموع لتفريق عشرات اللآلاف من المتظاهرين، فيما أطلق الجنود العنان لرشاشاتهم التي حصدت كثيرًا وأوقعت العشرات بين قتيلٍ وجريحٍ في الأيام الأولى من تلك الهبّة التي حملت فيما بعد اسم الانتفاضة.
ومن ضمن الصور التي غيرت صورة الفلسطينيين في الوعي الإنساني وجعلت قضيتهم بالفعل على رأس القضايا السياسية والأخلاقية، الصور التي التقطت في الأسابيع الأولى من الانتفاضة، والسبب الجوهري في بقاء وتأثير هذه الصورة هو أنها أعادت تركيب وبناء المفاهيم حول المقاومة الفلسطينية، فعلى عكس الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من القرن الفائت، التي كانت المقاومة الفلسطينية فيها مرتبطة بالخطف والتفجيرات والعمليات المسلحة، كانت الانتفاضة الأولى حركة مقاومة يقودها أطفال المدارس والشباب بالحجارة، ومن دون دعم أو تحريض إقليمي أو دولي، ومن دون حافز أو محرك غير الحرية من الاحتلال، ويظهر الشباب في الصورة وهم يواجهون القوات الإسرائيلية في أرض معركة مكشوفة، من دون الاحتماء بالشوارع الجانبية وليس معهم أي شيء سِوى حجارة الشارع والعلم الفلسطيني.
استمرت انتفاضة الحجارة عدّة سنوات، إذ إن بداية تلك الانتفاضة لم يُقرِّرها أحد، لكن نهايتها كانت بقرار سياسي، ١٣ سبتمبر ١٩٩٣ كان آخر أيامها، حينما وُقِّعَت اتفاقية إعلان المبادئ في العاصمة النرويجية أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية والدولة العبرية، أو ما يُطلَق عليه اتفاق أوسلو، وعادت بعدها طلائع القوات الفلسطينية إلى غزة والضفة الغربية، وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ الشعب الفلسطيني، مرحلة أخذ فيه الصراع منحنًى جديدًا، لكن الثورات لم تتوقف.
شَهِد عام ١٩٩٦ ما سُمِّي بـ"هبّة النفق" إثر إقدام السلطات الإسرائيلية على فتح نفق أسفل المسجد الأقصى، قبل أن تندلع بعد ذلك بأربع سنوات انتفاضة أخرى أُطلِق عليها انتفاضة المسجد الأقصى.
[موقع: ويكيبيديا، عنوان المقالة: القضية الفلسطينية].

تعمدت أن تدخل الدار فلحقها، وهناك كان والدها وعمها جالسان في صحن الدار، وقالت:

- يا عم، أُكْفُفْ فضل ولدَكَ عني.

كان لزجًا يلون الكلمات الباهتة التي ينطقها بلا مشاعر، زوى ما بين حاجبيه في محاولة لاستيعاب ما يحدث ولوى شفتيه في امتعاض، استغرب الرجلان صرامة صبية لم تتجاوز السابعة عشرة بعد. تبادل "فضل" ووالده نظرات متواطئة، قام أبوها وقد انفرجت عباءته الزيتونية المطرزة بخيوط برتقالية جميلة، وقد انفرجت أساريره يحتضنها، ليحول المشهد إلى كوميديا ساخرة قبل أن تقوم معركة بينه وبين أخيه.

- ومن هنا يستطيع أن يؤذيكِ ما دمت حيًّا يا صغيرتي؟! أقسم لن تتزوجي حتى تنهي دراستك وتقرري الوقت الذي تختارينه والعريس الذي ترضينه.

كانت تلك بمثابة طعنة قاتلة في قلب "فضل" وصفعة على وجه والده.

منذ ذلك اليوم، أعيد ترتيب كل شيء في مكانه، ووقف كل شخص عند حده، خرج "فضل" ووالده صامتين.

***

يوم عرس "غادة" كان يومًا لا يُنسَى، بعد أن حضر أهل العريس في يوم التقبيضة [٢٧] واتفقنا على يوم الصمدة [٢٨] وبعدها الزفاف.

---

(٢٧) يوم التقبيضة: يوم دفع المهر.

(٢٨) يوم الصمدة: تقديم الشبكة بعد عقد القران.

أعددنا الحلويات منذ الصباح الباكر، بقلاوة وكنافة وكثير من المشروبات وعلى رأسها دلات القهوة.

ركبت "غادة" جَمَلًا، لا يظهر منها شيء، وقد زُيِّن الجمل بدلايات مطرزة وسرنا بها في طرقات القرية وسط الأغاني والزغاريد، ووُضِعَت الشبكة فوق طبق من قش تتناوب النساء حمله فوق رؤوسهن وهن يرقصن.

وكلما تقدم العرس تقدم شاب من شباب القرية وعقد منديله في رسن الجمل وهو يقول: "هذه محرمتي"، وبعدها شاب آخر يعقد منديله ويقول: "هذه محرمتي"، وهكذا يتواصل الأمر وتتكاثر المناديل حتى تصير حبلًا كبيرًا، ثم يذهبون إلى شيخ القرية فيتدافعون بمناديلهم لطلب إعداد عشاء العروس، فيحكم الشيخ بينهم، كلٌّ يحل منديله ويعرض حجته فيقول أحدهم: "نحن جيرانهم الأقرب إليهم"، ويقول الآخر: "إن أهلي أصدقاء أهل العروس"، ويقول آخر: "إن لهم علينا فضلًا وجميلًا نريد ردَّه"، وهكذا.

يتواصل عرض الحجج حتى يأمر الشيخ فلانًا منهم ويقول له: "عشاء العروس عند بيتكم يا فلان".

ويمضي الجمل في شوارع القرية وكلما مر ببيت أو دكان ألقى أهله الحلوى عليهم وزفوهم بالزغاريد، وكانت تلك عادات قروية قديمة في الأعراس اختفت تدريجيًّا، لكن والدي كان مُصِرًّا عليها.

وليلة الحناء التي امتلأت غناءً ورقصًا حتى الصباح، وقد أعدت أمي صينية كبيرة عجنت فيها الحناء بماء الزهر وزينوها بالورود، ثم بدأت الفتيات في نقش الحناء على الكفوف والأقدام، والنساء يرقصن ويغنين أهازيج الأعراس، وفي يوم العرس توافدت الجارات يحملن القدور الكبيرة ليساعدن أمي في الطبخ للعرس.

راغب

تخرَّجت في الجامعة وحصلت على الماجستير وها أنا أستعد لمناقشة رسالة الدكتوراه، ليُفاجئنا ذات صباح خبرُ اختفاء "شهد"، أو بالأصح اعتقالها من قِبَل قوات الاحتلال الإسرائيلية.

فهل من الممكن أن نرى الأمل وقد خلفنا رماده وراءنا؟! لكن الحقيقة أن الأمل هذا كان هو المستهدف أكثر من أي شيء آخر.

"شهد" التي كانت ترى الدنيا بعينين ورديتين، باتت ترى كل شيء ظلامًا أسود، فهي من أولئك الذين وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام الطاغوت، لكن القضية ستظل تسكن ضلوعها وتسري في شرايينها، قضية عادلة بلا اتفاقيات ولا مؤتمرات، بلا وعود ولا تنازلات، وستبقى القضية شوكة في حلوق الخونة والمنبطحين لترسم خطوط الأحلام وخطوات المعركة ورائحة الانتصار، فتضييق الخناق من المحتل على فلسطيني الداخل يؤجج الغضب في الخارج.

الشباب يحتج ويتظاهر مرتديًا الكوفية الفلسطينية والعلم الفلسطيني وصور الأقصى والقدس الشريف، ثم مقاطعة الشركات الداعمة للكيان الصهيوني وفي مقدمتها مقاهي

ستاربكس – ماكدونالدز – ديزني – نيسلة وغيرها، المقاطعة تأتي هنا كمساندة معنوية ولفظية.

مر وقت طويل على سماعنا خبر اعتقال "شهد" الذي أفجعنا.

"أحمد" الذي أشرق الحبُّ في قلبه كما تُشرِق شمس النهارِ يتلبَّسهُ الصمت وبصره يسبح في الفضاء، منذ رآها سكنَتْ قلبَه ولم تفارقه، فامتلأت روحه بها وامتلأ تعلُّقًا بوجودها.

مرت الأيام عليه وقد بات محزونَ الفؤاد ممزَّقَ الأوصال يسير في تيهٍ لا يحمل سوى الذكريات، تذكرها وهي تتطلع إلى السماء بيقينٍ كأنها تدعو بأمنياتٍ ثقالٍ لا يقدر عليها إلا ربُّ العالمين. منحته الذكرى أملًا، لكنها لم تكُن كافيةً لوأْدِ شوقه إليها ودفن خوفه عليها.

ربَّت "راغب" على كتفه فسارعَ بإشاحةِ وجهه بعيدًا كي لا يُظهِر ضعفَه وهوانَه، كأنما تتبدَّدُ الأنفاس فلا يقدِر على أن يستجمعها، الأنفاسُ تتردد وتتعثر، لا يملك شهيقًا ولا زفيرًا، يتقلَّب بين أروقة الحزن والأسى.

رفع صوبه عينين حزينتين، طال سكوته وتعاظم القلق عليه، لملم شتاتَ شجاعته وكوَّرَ قبضته ليضرب جدارًا أمامه، ثم ضربة ثانية وثالثة، توالت الضربات حتى أدمَتْ يده، كان يجمع أنفاسه ويُسكِنها صدرَه بصعوبةٍ بالغة.

القلقُ والفزعُ عليه اللذان كانا يَسْكُنانهم استحالَا إلى خوف، فتقطَّعتْ قلوبهم وتمزقت صدورهم. غادرهم "أحمد" باضطرابٍ تشيعه نظراتهم المنكسرة وبداخلهم ينمو إحساسٌ كبيرٌ بالمسؤولية عنه ومشاركته محنته.

***

اجتمعت مع "أحمد" و"عمرو" لنُنَظِّم خطوات البحث عنها، وأولها السفر إلى غزة عبر الأنفاق، قضينا الليل مستيقظين نتدبر ما سنفعل لنضع الخُطَط والاحتمالات، تواصلنا مع بعض البدو وتسلَّلنا إلى سيناء. لم تكن هناك خطة محددة، فهي المرة الأولى التي نسافر فيها إلى غزة عبر الأنفاق، كنا قد سافرنا عدَّة مرَّات من قبل مع قوافل طبية لتقديم المساعدات لأهل غزة، محاولات واجتهادات من الجميع حتى نُسَلَّم إلى أفراد المقاومة هناك.

أتممنا مَهَمة الاتفاق مع البَدو، وكانت الليلة الموعودة للرحيل، انطلقنا عبر الأرض الصحراء والمباني القليلة المُتناثِرة هنا وهناك كأننا نُسلِّم واحدًا إلى الآخر، ندخل بيتًا ونخرج من آخر وأجسامنا تكاد تجفُّ تحت الشَّمسِ الحارقة، وأرواحنا المُلتاعة لفقد رفيقتنا تُحلِّقُ فيما وراء الأنفاق، الصحراءُ كونٌ شاسعٌ لا نهاية له، والهواء يحملُ صدى صراخٍ وأنين تتناقله الريح ليرتطم بجنباتِ الجبال، فتتعملق الأصوات مراتٍ ومراتٍ في خِضمِّ مأساتنا وألمنا عبر الطريق الطويل الشَّاق.

تعاهدنا على الوفاء، أعيننا تتناقل بين الطريق الخالي الممتد أمامنا وبين وجوه بعضنا بعضًا. الظلام قد حل والمكان يستمد نوره من هلال غمر الصحراء بضوئه، السكون يسود المكان فكنا نسمع وقع خطانا على الحصى والرمال، أما الظلال فكانت كثيفة حتى لتكاد تحجب ملامح دليلنا في الصحراء.

باستثناء ظلِّنا كان "أحمد" بقامته الطويلة وجسمه النحيل يتنقل بخفة مع الدليل ليقول له:

- لا تقلق، نحن كل يوم نتعرض لهذا.

هز" أحمد" رأسه موافقًا:

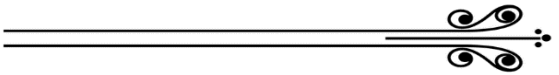

- لا بد من الحذر لسلامتكم.

كان الدليل رجلًا سَمِحًا بلحيته ونظرته الثاقبة وقامته القصيرة.

وأخيرًا عقب السير لمدة طويلة بين حنايا الأنفاق، تارة نركض ونهرول وتارة نسير ببطء وتارة نقف نتأمل ونتدبر، تلك الأنفاق التي ابتدعها الفلسطيني ردًّا على قسوة العالم وظلم المحتل وخنوع الأنظمة، صورة لتمرد فلسطينيّي الداخل على الحصار وصفعة على وجه العالم المتخاذل، ميلاد فجر جديد للمقاومة وتغيير قواعد اللعبة- وصلنا إلى فم النفق من الجهة الأخرى.

وجدنا أنفسنا داخل بيت من البيوت القديمة، بيت شِبه مهجور إلا من بعض الأثاث القديم، وتخفَّينا عن الأعينِ يومًا وليلة وكنا في ضيافة أسرة فلسطينية.

العجوز التي استضافتنا في المساء صبَّت لنا كاسات الشاي الذي كان رائعًا، فلا أمهر من أهل الصحراء في صنع الشاي الذي تفوح منه رائحة المريمية.

بيئة فقيرة لكنها عزيزة النفس، الوعد والاستقامة هما صِنْوَا الخلاص، سُلِبت أراضيهم وطُرِدوا من ديارهم، زوجُها عجوزٌ ناحل بدت العظام في أعلى وجنتيه، ويمتلك مُقلتين تبرُزان في وجه أضنَته السُّنون، جاورنا بعد أن احتضن بكفَّيه قِدحًا من الشاي الساخن وجلس يروي لنا مشاهداته:

- لقد أمضيت حياتي أترصَّد الماضي، أتهيأ للثأر من الجميع، فأحزاني وأشباحي منعتني من تذوُّق طعم الحياة، كنت أعيش حياة سعيدة وسط أسرتي حتى أتى جنود الاحتلال وأرغمونا على الرحيل، تركنا بيوتنا وأرضنا وأموالنا وطُرِدنا، ثمَّة صباحات كثيرة أشرقت علينا بلا ضياء ولا شمس ومن دون دفء، صحيح أننا سَكَّنَّا دورًا أخرى ولكن ما نفع الدار حين نفقد الوطن؟! صمتٌ رافق مأساتنا ومضينا نتخندق لقتال آلة عسكرية جبارة،

كلما ازدَدْنا إصرارًا ازدادت تدميرًا وإبادة، إننا أبناء شعبٍ مُنتَهكٍ ومُضطَهَد، نقاتل بالوسائل المتاحة لاستعادة وطننا وكرامتنا. لقد رزقنا الله بولد بعد مدة طويلة من المعاناة، وحين بدأ يمشي كان قدره أن يكون مريضًا بداء لم نعرفه. الأطباء طلبوا منا الذهاب به إلى حيفا، فلم يكن في الضفة إمكانيات طبية لعمل أشعة وتحاليل متقدمة. نشفوا ريقنا حتى أعطونا تصريحًا لندخل حيفا، وحين فحصوا الصغير أجمعوا على ضرورة إجراء عملية جراحية، وحُدِّدَ لها موعدٌ بعد شهر. قبلت أقدامهم قبل أيديهم كي يجروها بسرعة، فقد يموت الصغير قبل أن يمر أسبوع وليس شهر، لكنهم رفضوا متعللين بنقص الأسِرَّة والمستلزمات الطبية وكثرة الحالات التي لا بد أن تأخذ دورها في طابور الانتظار. عدنا وكنا نبكي كل يوم ونحن نرى الصغير يموت ببطء، كل يوم كنا ننتظر موته بين لحظة وأخرى وليس بأيدينا ما نفعله، فالعين بصيرة واليد قصيرة يا أحبابي! لو كنا نملك من المال ما نستطيع به شراء تأشيرة سفر إلى الخارج لفعلنا.

تنهد الشيخ ومسح دمعة فرت فشقت طريقها بين أخاديد الزمن التي حُفِرت على وجهه وهو يقول:

- مات ولدنا الوحيد بعد سبعة أيام فقط، لقد كان القدر رحيما بنا، لأننا كنا نموت كل يوم ألف مرة.

غَشِيَ عينيه اكفهرار تقضُّه ذكريات مأساة، فيما كنا غارقين في صمتٍ مهيب، السماء التي لاح فيها فجر لم يُشرِق ولم يُضِئ قلوب البشر المُظلمة.

حاولنا النوم الذي كان عَصِيًّا، النوم الذي ما هو سوى رحلة قصيرة إلى الموت، نتخلص فيه من الحياة فننسى الهموم والأوجاع، نُغمِض الأعين لتستكين الجوارح، حتى يجيء نور الصباح الذي لا يتأخر ولا يتقهقر بل هو ثابت في موعده.

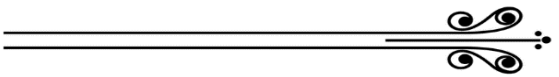

العقل الذي دُهِس كعلكة تحت أحذية المارَّة كان يستصرخهم في البداية أن يرحموه من الطَّحن المتواصل حتى استسلم وأذعن وخارت قُواه فارتضى بالأمر.

أفزعنا صراخها وهي تنادي:

- ولدي! ولدي!

قمنا نركض نحو الصوت فوجدنا الشيخ يهدئ روع زوجته وابتسم لنا وهو يناولها كأس الماء.

- لا تقلقوا، فقد اعتدنا على هذا الأمر من أم الرجال.

للمرة الأولى نسمع اسمها.

تمتمتُ مُطيِّبًا خاطره:

- الله يعوضك خيرًا يا حاج.

لكن "أم الرجال" التي كانت تصرخ منذ قليل، ما لبثت أن استعادت ثقتها ورِباطة جأشها، لتروي لنا أغرب قصة سمعناها في حياتنا.

- كانت النسوة والرجال قبلهن يسمونني المرأة الخارقة، فالكل دائمًا يراني تنشق الأرض عني فجأة.

أكمل زوجها:

- أم الرجال كانت تنقذ الأطفال والشباب من أيدي الجنود الإسرائيليين، فهي تطلع من تحت الأرض حين يلاحقون الصبية والصغار الذين يرشقونهم بالحجارة، فتتقدم بقوة جبارة تطيح فيهم ضربًا وركلًا وصراخًا كأنها عاصفة عاتية قائلة: "اتركوا ولدي، دعوا ولدي!"، ولا تسكت حتى تُخلِّصه من بين براثنهم وتمضي به مسرعةً في أحد الشوارع

الجانبية أو الأزقة والحواري. كما نظن أم الرجال تصرخ على صغيرها الذي فقدته، لكنها كانت تصرخ على كل شاب أو طفل في المدينة فكلهم أولادها، ولذلك سموها أم الرجال ولا يُعرَف لها اسمٌ غيره. (٢٩)

***

كل ما في المدن يصرخ، البلدات المحاصرة، نقاط التفتيش، عند مفترقات الطرق وحافل المستضعفين الذين ينتظرون دورهم عند الحواجز الأمنية، يتعرضون للإهانة، غالبًا ما يُمنَعون من المرور وغالبًا ما يَعترِضون لتُسدَّد لهم اللكمات وضربات الهَراوى، كل شيء هنا يدعو إلى الغضب.

جهَّز شباب المقاومة أماكن متعدَّدة للمَبيت حتى لا يُكتشَف أمرنا، وفي كل مرة كانوا يجهِّزون لنا ملابس مختلفة، وأوراق هويةٍ جديدة، وانطلقنا مع أحدهم إذ سلَّمنا إلى "سعيد" وهو المسؤول عن المجاهدين القادمين عبر الأنفاق. (٣٠)

كان "سعيد" شابًّا في بداية العَقد الثالث، طويل القامَّة، رصين النَّظرة، شحيح التبسُّم.

- مرحبًا بكم يا شباب.

---

(٢٩) أم الرجال قصة حقيقية من التراث الشعبي الفلسطيني.

(٣٠) السياق التاريخي هو الذي أنتج تجارب الانتفاضات الفلسطينية، وفهم العوامل التي ساهمت في تشكُّل هذه التجارب، وتوضيح أهميتها ومدى ارتباطها بواقع اليوم وإمكان إعادة الاعتبار إليها. وقد تم التركيز على مفهوم المقاومة الشعبية ضمن السياق التاريخي الفلسطيني في الأراضي المحتلة. فالانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ لم تكن مواجهة مباشرة مع جيش الاحتلال فقط، بل أيضًا عملية شمولية ذات أنماط مقاومة متعددة، وقد أُدرِكَت هَيْمنة خطاب السلطة الفلسطينية على الانتفاضة الثانية عام ٢٠٠٠، التي حولها إلى مجرد أداة لتحسين شروط التفاوض، وبذلك أصبح الواقع الفلسطيني محصورًا بين خيارين: إما الخضوع لسياسة العمليات العسكرية والاستشهادية كغاية بحدِّ ذاتها، أو سياسة أوسلو التي أصبحت قيدًا آخر لا يقلُّ وطأةً عن القيد الإسرائيلي. [موقع: إضاءات، عنوان المقالة: كي لا ننسى: ١٠ كتب للتعرف على القضية الفلسطينية، ٢٠١٦/٦/٩].

بادرَنا "سعيد" بالتحية.

- أنا راغب، وهذا صديقي عمرو وهذا أحمد أخونا وهو خطيب شهد.

- وأنا سعيد.

غاص "أحمد" في فُقَّاعته من جديد صامتًا تائهًا شاردًا، كانت الحواس زائغة تتقلب بين السماء والأرض كمن أصابه مس.

تابع:

- أودُّ فقط أن أقول لكم، إن الحياة خِداع وغرور، تمتلئ وتفرغ فلا يبقى شيء على حاله، ثقتنا بالله لا حدود لها وإن وعد الله حق وإنَّا أصحاب قضية وأهل عقيدة، وعقيدتنا الأقصى، نموت فداءه ونحيا للدفاع عنه، فجدِّدوا نواياكم وأصلِحوا قلوبكم واستعدُّوا للجهاد في سبيل الله.

- هل وضعتم خطةً ما للبحث عنها؟

- ليس بعد.

- لا بد أن تقابلوا عمَّار شقيق شهد.

اتَّسعَت حدقتا "أحمد"، فقد كان الشَّغف يغلب عليه فيما الفضول يغالبه فهمس:

- هل هو موجود معكم؟

- نعم يا أخي فقد تعرَّض منزلهم للقصف، وماتت كل عائلته تحت الأنقاض، فأقسم أن يأخذ ثأره قبل أن يبني بيتًا جديدًا.

أشفقنا عليه ولم نُعقِّب، في حين استطرد "سعيد":

- اتبَعوني ولا تقلقوا.

سِرنا خلفه بتؤدة حتى وصلنا إلى طرف المعسكر، حيث تقبع عدَّة غُرَف متجاورة، توقَّف "سعيد" عند واحدة منها، ثم طرق الباب. فتح لنا شابٌّ قويُّ الجسم، مفتول العضلات، وجهه مستدير، له لِحيَة نابتة وصوته كان رخيمًا.

- مرحبًا سعيد.

حيَّاه ثم أشار نحونا.

- أُعرِّفك بأحمد خطيب أختك شهد، وصديقيه دكتور راغب ودكتور عمرو.

كان "عمَّار" يَجول في ملامحنا يبحث عن شيء ما! لمحتُ في عينيه انكسارًا ولهيبًا من غضب متأجج.

شَمَّر الليل بطانته على مداعَبات النهار الأولى، استيقظنا ساعة الصباح بعد أن غَفَونا ساعات قليلة، وقد أحضر لنا "عمَّار" الفطور، قهوة بالحليب وزيتون وبيض مسلوق وشطائر مدهونة بالزبدة ومُغمَّسة بالعسل، فطور قَدِمت به فتاة صغيرة من إحدى الأُسَر المُجاوِرة للمعسكر والتي يُشارِك أبناؤها في التدريب فيه، وحين علِموا بقدوم بعض الوفود الجديدة قدَّموا واجب الضيافة.

***

على زوايا الطريق وقف النهار بشمسه ووهجه حائرًا، أما هو فكان كلُّ ما فيه يئن عليها، مُكبَّلٌ هو قبلَها، مُقيَّدٌ هو معها، يظلُّ في تدريباته حتى يخر جسده ويتهاوى فيذهب ليغتسل، حتى إذا أدرك دخولَ الفجر فزع إلى مولاه يقف بين يديه، حتى إذا استوى عنده قرأ الآيات وبكى، فيُبكي كلَّ من حوله، ثم يركع ركوعَ العبدِ الضعيفِ ويسجُد سجودَ العبدِ الذليلِ لربه، يبوحُ في سجدته بكل آلامه وأوجاعه، بما يحرق صدره وما يؤجج فؤاده، ولا يزال هكذا بين ركوعٍ وسجودٍ حتى يُؤذَّن للفجر فيصلوا الفريضة.

(٥)

المهمة

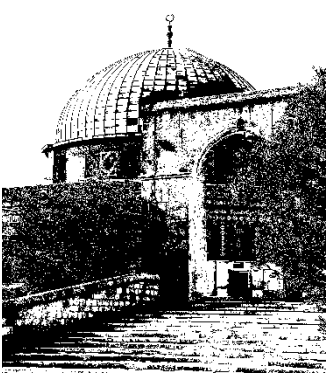

اجتمعنا مع بعض رجال المقاومة، للتنسيق والبحث عن "شهد"، ولم يكونوا قد تأكدوا بعد من احتجازها، مدة صمتٍ طويلةٍ من قِبَل "سعيد" حين أتى ذكرُ "شهد" ثم قال:

- إذًا فكل قضيَّتكم الفتاة!

ألقاها في وجوهنا بعد أن رمانا بنظرة متشككة، ثم صمتٌ وارتباكٌ من الجميع عدا "أحمد" الذي كان واثقًا بنفسه.

- قضيتنا الكبرى فلسطين يا أخي، وكل ما نقدر على فعله سنفعله، فلتنظر فيمَ نستطيع المشاركة.

دار "سعيد" حولهم وهو يتفرَّس في ملامح ثَلاثَتِهم، وبإشارة إلى أحد رجاله، رحل سريعًا وقد أمره بالبحث وراءهم ومعرفة حقيقتهم، طلب منهم "سعيد" الراحة تلك الليلة وتركهم.

فالقضية الفلسطينية تعاني على أكثر من صعيد، من بينها وضع الفلسطينيين في الضفة وغزة، تهويد القدس، تضييق الخناق على المقاومة، تعثُّر المسار التفاوضي والانقسام

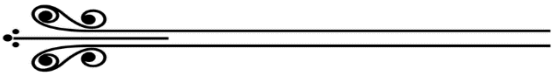

الفلسطيني الداخلي. لكن ربما تكون المعاناة الأكبر التي لحِقت بالقضية الفلسطينية عبر السنوات الأخيرة، هي تَراجُع الوعي بمبادئها بخاصة بين الأجيال التي لم تُعاصِر بحق موجات صعود المقاومة الفلسطينية إبان الانتفاضتين الأولى والثانية، فسيطرة الخطابات التطبيعية على وسائل الإعلام العربي، ومحاولات تشويه القضية أدَّت إلى تَراجُع الوعي بأساسيات القضية بشكل غير مسبوق، مما يُنذِر بتراجع مكانة "قضية العرب" بين أبنائه.

مرَّ يومان حتى تأكدوا من هويتهم، وعلى بُعد أمتارٍ كان هناك مبنًى صغيرٌ فيه عددٌ من الأطفال، وكان الملجأ لإيواء اليتامى ومن فقدوا أهلهم، كان مركزًا يُقدِّم كثيرًا من الخدمات للأطفال الأيتام ولأطفال الحي كله، بقينا معهم نهارًا بأكمله ورأينا بأعيننا كمَّ المعاناة التي يحياها الجميع من نقصٍ في الخدمات والوقود والأدوية وكل شيء.

دموع في أعين لا تُحصَى، دموع سقوط وخيبة، دموع مأساة ويأس، وهناك أيضًا دموع رفض كسيح وغضب مكسور الجناح.

معسكر التدريب

تزاحمت الأسرة في غرف ضيقة تشارك الجميع الجدران وتعانقت الأنفاس، تشابكت النظرات في أسمار المساءات الطويلة حتى امتزجت القلوب وانصهرت المسافات، ساحات كبيرة بُنِيت فيها بعض الغرف من حجر وأحبال وأدوات تدريب بدني وعضلي، معدات للتدريب على الرماية والقنص، سَوَاتِر ترابية تملأ جنبات المكان، كانوا يمضون يومَهم في تدريبات بدنية تتضمن الرماية بأسلحة نارية، محاضرات نظرية في الدين والتاريخ، حلقات تدارُس القرآن وعلومه، بعض الفنون القتالية، الساحة مهرجان عمل متوهج مضاد للوحشة واليأس والحصار.

شباب المقاومة طلبة وعمال وموظفون وتجار، يتدربون ليلًا ويخرجون صباحًا إلى أعمالهم، فيذهب كل منهم إلى جامعته أو وظيفته، وقت التدريب يعتمرون البنادق والرشاشات، الأصابع على الزناد ثابتة لا ترتبك فهي تعرف عدوها جيدًا، كانوا يغسلون الليل المتسخَ ببياض قلوبهم، يرممون النهار برباط ليلهم في سبيل الله، تنظر في أعينهم فترى تلك النظرة الساخرة من الموت، يتوقون إلى الحرية ولو في طبقات السماء.

الأطفال هنا لا يهابون دبابات الاحتلال ولا بنادقهم، يرشقونهم بالحجارة، لا يخشون طائراتهم ومدفعيتهم ويتندرون على الأنظمة العربية التي تدفن رأسها في المعاهدات واتفاقيات السلام.

بعض شباب المقاومة يفتحون ثغرات في البيوت يتنقلون عبرها، يصطادون الجنود، يُشيِّدون أكمنةً للجيش ويزرعون العبوات الناسفة في طريق سير قوات الاحتلال، يسعون إلى إحدى الحُسنَيَيْن، إما النصر وإما الشهادة، فالاحتلال الذي قصف الأعمار واستباح الأرض والعرض نحر أحلام الشباب ومزق ذكريات البشر، الصهاينة الذين يسيرون على جراح الفلسطينين يطفئون شمسهم ويشعلون الحرائق، يزيفون التاريخ ويمزقون الخرائط، يدنسون المقدسات وينتهكون الحرمات.

فالراحة رفاهية لا يمتلكها أصحاب القضايا والهمم.

مضى حوالي أسبوعان في التدريبات وقد شارف الأسبوع الثالث على الانتهاء، دخل "سعيد" وبعض رجاله وطلب منهم الاستعداد للتدريب حتى يحصلوا على معلومات أكيدة عن وضع "شهد" ومكان احتجازها.

كان الشباب ينتشرون في الأحياء فوق الأسطح وبين الأزقَّة يتدرَّبون بأسلحة بدائية الصُّنع وبعض البنادق القديمة، وصلت إشارةُ أن قوات العدو الصهيوني ستقتحم المكان للبحث عن أسلحةٍ وبعض المطلوبين أمنيًّا، وبالفعل رأينا الشباب يستعدون للدِّفاع عن الحي، زاغت الأبصار وبلغت القلوبُ الحناجر وبدأ الرِّجالُ في التَّجمُّع، أما النساء فأخفينَ الأسلحة في مواقد الأفران وفي المكامن فوق الأسطح.

النهار كان صحراء قاحلة من الخوف والقلق، فمنذ أبْكَرَ الصبحُ والجميع يتوجس خيفة، من أربع جهات طوقت القوات الإسرائيلية المكان وانتشر الجنود بأسلحتهم، وأُغلِقَت الشوارع بالحواجز.

الجرَّافات تنفث سحبًا كثيفةً من مدخناتها، مزَّقت جنازيرها الفولاذية التُّربةَ تمزيقًا وحشيًّا وبدأ كل شيء في الانهيار، البوابات والجُدُر والأسوار والدرج ثمَّ تحوَّل كل شيء إلى هباء.

كان العدوُّ في غضبةٍ مستعرةٍ لما يشنُّه رجالُ المقاومةِ من عملياتٍ استشهاديَّةٍ تزلزلُ قلوبهم وتشلُّ أركانَهم، فوقَرَ في القلوب يقينًا انتقامُهُم الشرسُ من الشباب، وبعد حوالي ساعتين وصلت نحو عشرِ سياراتٍ مصفحةٍ وعشرات الجنود الإسرائيليين وخمس جرافاتٍ كبيرة، وبدأوا بهدمِ بعضِ المنازل بعدَ أن أخرجوا منها أهلها في مشهدٍ اقشعرت له الأبدان، إذ ترى كسرة القلوب وقهر الرجال. البداية كانت عنيفة، زَلزَلَت الجميع واكتملت بإلقاءِ القبض على بعض الرجال والشباب وطفلين صغيرين، انفطرت لدموع أمهاتهم القلوب، كان هذا المشهد كفيلًا بإلهابِ الحماس في القلوب.

وجدوا أنفسهم فجأةً مقاتلين في مساحة ضيقة وفُرِضَ حصارٌ بعد المداهمة مباشرة وبدأت السماء تُسقَط عليهم كِسَفًا من العذاب، قذائف لا حصر لها وريح موت تنتشر فتسحق كل شيء أمامها. لم تكن القوة المستخدمة تتناسب أبدًا مع مكانٍ كهذا، مخيمات متهالكة ولكنه الجحيم الذي أطل برأسه ليكسو الأرض بمزيد من الخوف والموت والحصار، الحصار الذي راح يشتد ويضيق الخناق على الجميع، ما تركَ حجرًا ولا بشرًا. (٣١)

لكنْ ثمة شيءٌ ما يبقى، شيء لم يستطع كائن على وجه الأرض أن يغتاله، شيء يسمى الحياة، فلا تنازل عنها مطلقًا ولا سبيل إلى مقايضة على وطن، فالوطن حياة.

- وربما موت!

قالها "راغب" حين مروا بصف طويل ينتظر كل من فيه بعض الماء ووجبة طعام، رجل مصاب يقف في الصف، سارعوا إليه يتفقدون جرحه فقال له "عمرو":

- لا بد من نقلك إلى المشفى يا أخي فجرحك غائر.

(٣١) منذ نكبة الثامن والأربعين حتى عقد اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، برز عديد من الحركات السياسية المسلحة وغير المسلحة، وقد انصهر معظمها تحت مظلة منظمة التحرير الفلسطينية. وكان الكفاح المسلح للحركات السياسية الفلسطينية له دور مهم في تحديد الهوية الفلسطينية وعملية بناء الدولة الوطنية الفلسطينية. [موقع: ويكيبيديا].

رفض الرجل الخروج من الصف، فأعاد عليه "راغب" ما قاله "عمرو" وأضاف:

- ستموت إذا لم نوقف هذا النزيف!

ومع إصراره أخرج "راغب" من حقيبته الطبية بعض أدوات الإسعاف ليربط جرحًا ينزف بغزارة.

- زوجتي وأولادي سيموتون جوعًا وعطشًا إن تنازلتُ عن دوري في الصف، ربما أدفع حياتي ثمنًا لهم.

***

كل شيء ينفد، الماء والوقود والدواء والطعام، والقذائف لا ترحم حتى أصبحت البيوت نخاخًا للبشر.

ضاق الحصار أكثر وأكثر وقلَّ الخبز حتى إن "عمار" قدم لهم ذات صباح بعض الخبز الساخن، اندهش "أحمد":

- خبز وساخن؟!

كان "سعيد" قد اقترح أن تُجمَع النساء من الملاجئ، ليعجنَّ ويخبزنَ حتى تعود الحياة، وانتهى الحصار.

الشمس التي أبت السطوع تكاثفت سُحُبها، وكثر غيمها مُنذِرًا بهطول مطرٍ قادمٍ في الطريق. ساحة واسعة رمالها ناعمة كَثُر فيها الحصى وعند كل ركن ربضت أَجوِلَة من الرمال تمتلئ عن آخرها وتراصَّت بغير نظام.

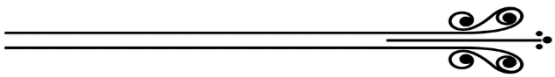

في ساحة التدريب في مركز المقاومة السِّري، كان "سعيد" يراقبنا بدقة، كانت شخصية "أحمد" قيادية فاستطاع أن يفرض احترامه على من حوله، واستجاب ثَلاثتُهم للأوامرِ والتعليماتِ كلها التي تلقَّوْها في التدريبات حتى انتهينا وصرنا جاهزين لأول عملية بعد مرور أسبوعين من وصولنا إلى رفح، كانت العملية الأولى خطفًا، نظر بعضنا إلى بعضٍ طويلًا فقد ظننَّا أن العمليات هنا تعتمد على القتل والقنص والتفجير، أما الخطف؟!

قرأ "سعيد" ما يدور في رؤوسنا وأجاب بابتسامة خفيفة:

- لا تستغربوا يا شباب، لقد اخترتكم لهذه المَهَمة لأن وجوهكم غير معروفة للجنود والمستوطنين الإسرائيلين، والخطف هنا سيدعم موقفكم في البحث عن زميلتكم، فنستطيع مبادلة الكولونيل موشي بها وبعدد من زملائها، وستشتركون ثَلاثتُكم في هذه المَهمة ومعكم عمَّار أخوكم في المقاومة.

وبدأ يشرح لنا خطوات المَهمة والتوقيتات المحددة لكل خطوة، إذ أجرى بعض شباب المقاومة عدة عمليات استطلاعية لمراقبة مواقع الاحتلال المستهدفة، لم نندم لحظة واحدة على خوض تلك الرحلة.

قفز "عمار" أولًا إلى السيارة الجيب وقد بدأ الطقس يزداد برودة، وكانت فرقة المراقبة قد سبقتهم إلى مكان المَهَمة، واختُطِفَ الكولونيل "موشي" من أمام مطعم على طرف المدينة في أثناء عُطلته الأسبوعية، إذ كان "عمار" يقود سيارةً صغيرة، وفي المقعد الخلفي يجلس "عمرو" و"راغب" بجواره، أما "أحمد" فقد كان يجلس في الأمام حتى حانت ساعة الصفر، ليترجل "راغب" و"أحمد" من السيارة ويقابلا "موشي" في الساحة المقابلة للمطعم وهو يتجه نحو سيارته، وبمجرد وصوله إليها ينقضَّان عليه ويلجمانه فيُقيِّدا ذراعيه ويشلَّا حركته، ولكن حدث ذلك بعد أن دسَّ سلاحًا مسنونًا في قلب "أحمد" الذي كتَمَ أنَّته وتحامل، حتى وصلت سيارة "عمار" فألقوا الرجل داخلها، ليتلقفه "عمرو" ويحكم وثاقه،

أما "أحمد" فقد انفجر جرحُه بدماءٍ غزيرةٍ عجز الجميع عن إيقافها ليلفظ آخر أنفاسه قبل أن تصل السيارة إلى مركز المقاومة.

في مقر المقاومة احتُجِزَ الكولونيل "موشي"، واحتضن "راغب" جثمان "أحمد" ووضع رأسه على صدره، أمسك بيده ولثمها وانهار في البكاء كطفلٍ صغير، صرخ:

- لماذا؟! لماذا قتلوك يا أحمد؟! ماذا جَنَيْت؟! ليتني ما عشت هذا اليوم وليتني إذ عشته ما وَعَيْتُه!

لحظتها كان البكاء فرضَ عينٍ على الأعين، استحال كبْتُ مشاعر فاضت حزنًا، فانفجرت بكاءً، دموع خذلان وخيبة، مهما كابرنا، مهما استبسلنا.

شدَّ "عمرو" بقبضته على يديه مُستدعِيًا فيه الثبات والجَلَد، أَقْعَى بقُربي رابتًا على كتفي:

- إنها سُنَّة الحياة تقضي أن نشهد رحيل الأحباب ونحملهم إلى أبواب مثواهم الأخير بأنفسنا، وأنَّا بعدهم وإن استطعمنا الحياة فلا طعم لها.

رفع رأسه إليه وأقسم بالثأر لـ"أحمد" ولكل من قُتِل غدرًا، كانت عيناه تذرفان الدموع كسَيْلٍ لا ينقطع، جسمه يرتعش بشدةٍ ليزداد نحيبه على صديق عمره الذي رحل.

- سنفتح لأحمد بيت عزاء، لكي نترحم عليه ونعد طعام الونسة ونقدمه ثلاث ليالٍ متواصلة، ثم نقدم عشاء الخميس.

قالها "عمار" بصوتٍ باكٍ.

تراقصت الأضواء الشاحبة على سقف الحجرة حين فتح "راغب" عينيه، حاول أن يفتحهما مرة أخرى، لكنهما أبتا سوى السقوط في عتمة حالكة السواد، شعور بالدوار

يلفه في دوائر لا نهاية لها ثم يلقي به على رأسه، ليرتطم مرة أخرى بأرضية المكان فيكاد رأسه ينسحق.

تقاطعت نظرات الجميع مستقرةً فوق وجهه، فيما الخوف يعتصر قلوبهم بعد أن سقط مغشيًّا عليه، استمر فقدان الوعي مدة، وحين استفاق شاردًا عاوده مرةً أخرى، كل ما قاله كلمات قليلات:

- ليتني أخبرته قبل أن يموت!

كان "راغب" واهنًا يملأ وجهه شحوب كثيف، ليكسو وجوههم أسى وأسف عظيم.

وقبل الرحيل، اجتمع بهم "سعيد" بعد أن نجحوا في مَهَمتهم:

- كنت أتمنى أن تُكمِلوا المشوار معنا، لكن رحيل أخونا أحمد قلَبَ كل الترتيبات، فلتذهبوا ليُدفَن بين أهله ويتمكنوا من توديعه.

وضع "سعيد" يده بلطف على كتف "راغب" ومنحه نظرة مؤازرة، في حين انفجر "عمرو" في نَهْنَهَةٍ مكتومةٍ بنشيجٍ باكٍ، وقد ظلَّ يُقاوم البكاء ليلةً كاملة.

نظر "راغب" في عين "سعيد" وقال:

- وماذا عن شهد؟

- لا تقلق يا أخي، ستكون على رأس قائمة الأسماء المطلوب تبادلها مقابل تسليم موشي.

سكتَ قليلًا ثم أردف:

- لا تتخيلان مدى إعجابي بوفائكم وترابطكم وتلك الرابطة التي جمعت قلوبكم، وأرجو أن تظلَّا على عهدكما!

قالها وهو يدير نظراتِه ما بين "راغب" و"عمرو"، واستطرد:

- أنتم أمل هذه الأرض، ولقد ضربتم أروع الأمثلة في التضحية والوفاء.

عانق كلًّا منهما وشدَّ على أيديهما ثم ألقى نظرة وداعٍ أخيرة على جثمان "أحمد" قبل رحلة العودة، أدَّوْا صلاة العشاء جماعةً قبل أن ينطلقوا تصحبهم دعواتُ وأمنياتُ شبابِ المقاومة.

***

في طريق الرجوع كان "راغب" ساهمًا يُحدِّق إلى الفراغ كأنه يحادثه:

- ليتني أخبرتك قبل أن تموت!

"راغب" الذي وجد نفسه مدفونًا بين قبرين وهو لا يزال على قيد الحياة، قبر أمه وقبر "أحمد". كان يضع يده تحت رأس "أحمد"، يتأمل عينيه اللتين غربتا، يمسح آثار الغبار العالق بوجهه.

شُيِّع "أحمد" إلى مثواه الأخير في جنازة مَهيبة تكاد تُقسِم أن الجامعة عن بَكْرة أبيها أتت وأن القاهرة بأحيائها حضرت وأنَّ من يعرفه ومن لم يعرفه شَهِد دفنته، فإذا رأيت ثَمَّ رأيت صورة جلالٍ مهيبٍ بلا أُطُر.

أما والدته، فقد أطلقت زغرودةً باكيةً وابتسامةَ قهرٍ ناميةٍ على شفتيها كأن جسمها صار نعشًا لقلبها، فما تدري أيَّ النَّعشَين سِيق إلى القبر. ولم يكن يملأ فؤادها غيره، وها قد صار فارغًا وليس يُمسِك بالحياة منها سوى خيطين، خيط الصبر والرضا فاستمسكت به، وخيط مسؤوليتها عن أبنائها ولم يعد لهم سواها.

رحل من كان مسؤولا عنهم وقد تبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود فشدَّت الوِثاق، واستقامت راضيةً بحمد الله حتى أدهشت الجميع لما أبدت من جَلَدٍ وحُسن تَصَبُّر. وهكذا جعلت تُشهِد الله أنها راضية صابرة محتسبة، فأرسل الجميع في إثرها نظرة إعجاب عوضًا عن الشفقة، واحترامًا بدلًا عن المواساة والمساعفة.

- جبرًا لخاطري يا خالة، اطلبي أيَّ شيء؟

أمسكْتُ بيدها أقبِّلها بأسًى وأسف.

نظرتُ بشموخ لكن الكلمات تلاشت على فمها والحزن يسكن عينيها فلا تتحدث إلا قليلًا:

- جزاكَ الله خيرًا يا ولدي.

قالتها وقد رقَّ قلبها له بعجزه ووهنه.

وانكفأنا إلى الحياة بعدها كلٌّ يحمل قلبًا غير قلبه الذي وُلِد به، وقد تشبَّعت القلوب ألمًا وهمًّا وغمًّا، وقد ضاقت علينا الأرض بما رحُبَت وضاقت علينا أنفسنا، فمصيبة فقْد "أحمد" وضياع "شهد" أصابتنا بذهول، غَيْر أننا لم نَجِد ملجأً من الله إلا إليه، فابتدر كل منا يَذكُر الله ويطلب عَوْنه ومَدَدَه.

أما أنا فعُدتُ إلى سيرتي الأولى، وقد أسْرَفتُ على نفسي الضعيفة فتكالبت عليَّ الدنيا، كيف جعلتني الحوادث مسخًا أذكر نفسي والكل أنسى؟! وكيف أُصبحُ والكون أَمسَى؟! فلستُ أدري أَشرٌّ أُريدَ بي أم الخير؟!

***

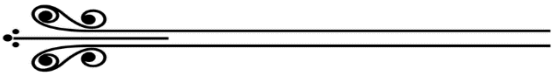

أمام حوض غسيل الصحون كانت تقف فيما تئنُّ قدماها، تمسح حبات العرق المتناثرة على جبينها وتُكمِل الجلْي، ليدخل "خيري" حاملًا حقيبة جلدية تحوي كراسات تلاميذ المدرسة التي يعمل فيها مدرسَ اللغة العربية، استدارت في مواجهته بعد أن ألقى عليها السلام:

- مرحبًا سلوى.

كانت مساحته الآمنة في أسوأ حالاته، الوقت الذي اختبرهما بقياسات الحرمان والفقد والفتور والمساحات.

لمحت سحابة همومٍ تطوف بعينيه فانقبض قلبها.

- مرحبًا خيري، طمئنِّي، كيف حاله؟

- لا جديد، بيّد أن الحالة مستقرة ولله الحمد.

هي التي آمنت به ورأت حلمه، ولأجل عينيه تُصاغ العهود فقط ليرضى.

داعبته وهي تلقي بسهم غيرتها عليه:

- المدرسات في مدرستك مثل الحيَّات ساحبات، والرجال أعينهم فارغة، وكما يُقال "عادة البشر، إن أمِنوا المحبة أساءوا الوصال"، ولأنك تعرف قدرك ومقدارك عندي ربما...

يضحك "خيري" مِلأ شِدْقَيه وهو ينفي عن نفسه التهمة:

- وأنتِ تعرفين أيضًا أني باقٍ على العهد ما خُنت، حافظٌ للودِّ ما برحت، راعٍ للحبِّ ما حَييت، سأظلُّ دومًا رفيق دربكِ وشقيق روحكِ وأليف قلبكِ.

واستطرد مداعبًا:

- وهل العمل في هذه المهنة يسمح لنا بشيءٍ من هذا القبيل؟! ثم إن عينيَّ لا تريان غيرك.

تقولها مازحةً فهي تعلم أن قلبه سقط بين أضلعها فأقام واستقام، سكن وأحسن السُّكنى.

ما يعكر صفو أيامهما وحدتُهما، فلا طفل يملأ عليهما الدار، هي التي ظلت قدماها عاريتان من الجنة تهفو أن تضم وليدها، تهدهده، تلاعبه. وهو الذي انتظر البشير في قميص يوسفه ليرتد بصيرًا.

- أقسم لكِ ليس في حياتي سواكِ.

كان "خيري" دائمًا يقول:

- المعلم ينجح بأخلاقه لا بعصاه ولا كِشرته، صحيح أن الحب لا يُطعِم خبزًا لكنه أحيانًا يُصبِّرنا على الجوع.

كانت "سلوى" حِنطية اللون، عسلية العينين، رقيقة الشفتين، حنونة النظرة ودائمة الفكرة، تزوجته زواجًا تقليديًّا عن طريق إحدى الجارات وقبِلت به بعقلها قبل قلبها.

عدَّل "خيري" نظارته الطبية بسبابته اليمنى في حركة لا إرادية وهو يُطالع دفاتر تلاميذه رَيثما تُنهي "سلوى" عملها المنزلي.

في فراشها وهي تتهيأ للنوم سألته:

- متى سنزور راغب؟

- غدًا أصحبكِ إلى المشفى حبيبتي، ليطمئنَّ قلبك.

تنهدت بأنَّةٍ خافتةٍ ورددت:

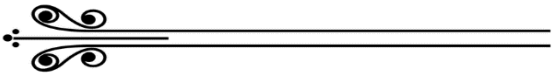

- كَتب الله سلامته.

تابعت:

- أتعرف ما المشكلة الحقيقية يا خيري؟ أننا في صراع دائم مع الحياة، نجاهد كل يوم لحل لغز جديد من ألغازها التي لا تنتهي، الخديعة الكبرى أننا ننجح وبتفوق حين يتعلق الأمر بألغاز الآخرين، لكننا نعجز عن فكِّ طلاسم حرف واحد من الألغاز التي تملأ حياتنا حين يتعلق الأمر بنا نحن.

ابتسم "خيري" ونظر إليها بإعجاب:

- هل تَعلَمين لِمَ يا عزيزتي؟ لأننا نهرب من صراعنا مع أنفسنا إلى صراع الآخرين، نفرُّ من ضجيجنا الداخلي لنُصغي بشدة إليهم، نجيد الاستماع إلى مشاكلهم ونستطيع ربط أحداثها والإلمام بتفاصيلها وتكوين رؤية كاملة، لكننا نخاف من مواجهة حقيقتنا والوقوف أمام عيوبنا.

تنهَّدت وهي تتثاءب وغمغمت:

- صحيح.

مدَّ يده ليُغلِق مصباح الإضاءة بعد أن غطَّت زوجته في نوم عميق بعد يوم عمل شاق.

هي الوحيدة القادرة على قراءة أفكاره ومعرفة ما يدور في رأسه، قادرة على الاندساس في أعين تلاميذه، بين صفحات كتبهم المدرسية، فوق الأقلام التي بين أيديهم، في زوايا بيوتهم، في حقائب مدرستهم، لتعيد ترتيب كل شيء. هي الوحيدة القادرة على التلصص عليه في الصباح وهو يحلق ذقنه، تنتظره في المرآة، وعلى حافة موسِه، بين شفرات ماكينة شعره، على أسنان فرشاته، في ثنايا معجون أسنانه، في حقيبته

الجلدية، في صوره المعلقة فوق الجدار، في كلامه، في صمته... حاضرة هي في كل تفاصيله رغم شرودها.

***

أنهَتْ "جنى" دراسة التجارة في المعهد المتوسط الذي التحقت به وحصلت على مجموعٍ كبيرٍ أهَّلها للدراسة الجامعية في كلية التجارة.

"جنى" الشقيقة الوسطى الرقيقة المشاعر الهادئة الحال، كانت نحيلة القوام، في قسماتها طفولةٌ جسَّدَتْها نبرتُها وطريقة حديثها، كانت طيبةً تأكل القطة عشاءَها، كما كانت تقول أمها.

حين تتابعت زيارات "عمرو" صديق "راغب" لمنزلهم، كانت تراه عابرًا بسلامٍ وابتسام، لا تعرف لِمَ ذاك الشعور الذي يجعل قلبها يقفز من مكانه حين تراه، بل حتى حين يُذكَر اسمه أمامها. "عمرو" الذي لم يترك "راغب" وقت مرضه ولم يكُفَّ عن السؤال عن والده وشقيقاته.

على حائطها في فيسبوك ظهرت صورته في جانب الأصدقاء المُقتَرَحين، عَرَفتْه من صورته أولًا ثم داعبها فضول أن تُلقِي على حسابه نظرة. كانت تتفحص منشوراته بإعجاب، فنظرته وتحليله يتوافقان تمامًا مع رؤيتها، ويبدو أنَّ ما حدث مع "جنى" من دون قصد منها حين ولجت إلى صفحته، قد حدث أيضًا معه منذ عدة أسابيع حين أقام في حائطها الفيسبوكيّ ليل نهار متابعًا كل حرف وكل كلمة تخطُّها فيه. لقد رأى اسمها حين علَّقتْ على منشور لشقيقها تُهنِّئه على رسالة الماجستير التي حصل على درجة مرتفعة فيها، ثم رأى تعليقها على منشور في صفحة عامة، كان منشورًا يتحدث عن ثورات الربيع العربي وكيف تتابعت في السنوات الأخيرة بطريقةٍ أثارت جدلًا واسعًا، حتى إنَّ صاحب

المنشور وضع ثلاثة احتمالات لتفسيرها، الأول أنها من صنع الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية وبدعمهم وتخطيطهم، الثاني أنها فَورة شعوب أرهقها البؤس والجوع والذل، الثالث أنها إن كانت الأولى أو الثانية فهي مُوجَّهةٌ ومقصودٌ بها وبنتائجها قتل طموح تلك الشعوب في العِتْق، وإبراز القوى العظمى بصورة القُوى التي لا تُهزَم مهما ثار الشعوب أو انتفضوا.

كانت التعليقات على المنشور ما بين مُؤيِّد للفرضية الأولى ببراهينها وأدلتها، ومُعارِض لها ومتفق مع الفرضية الثانية، أما الفرضية الثالثة فلم يناقشها أحد حتى دخلت "جنى" في الحوار وبدأت تطرح فِكرًا جديدًا ونظريةً مُغايِرة، فانهالت عليها التعليقات لمناقشتها، وهي تردُّ عليها بثقةٍ وثباتٍ أذهلاه، كانت كلماتها متوافقةً تمامًا مع رؤيته للأوضاع السياسية.

لم يجرؤ "عمرو" على أن يُرسِل إليها طلب صداقة، بَقِيَ مُتابعًا لها في صمت. حتى جاء يومٌ لم تُصدِّق فيه "جنى" نفسها حين أضاءت شاشتها وأصدرت صوتًا مميزًا بوُرود رسالة، وكانت تلك الدائرة الخضراء وبجوارها مستطيل كُتب فيه اسمه وبجانبه صورته المميزة "دكتور عمرو إبراهيم" على شريط الرسائل، قبل أن تفتحها لاحظت بضع كلمات: "صحة"، "راغب" و"المستشفى".

أفزعتها الحروف، ومن دون أن تشعر وجدت نفسها تفتح الرسالة:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، مرحبًا جنى، أنا عمرو صديق راغب، كيف حاله؟ زرتُه في المستشفى أمس، اضطررت إلى السفر إلى بلدتي لأمرٍ مهم، أريد الاطمئنان على صحة راغب لأن هاتف والدكِ غير متاح، ربما الشبكة ضعيفة".

تنفَّست الصعداء وأنَّبتْ نفسها، كيف تفتح رسالةً من غريب؟! وقرَّرت بعد عِدَّة دقائق من التفكير أن تردَّ بكلمات مقتضبات:

"وعليكم السلام، راغب بخير والحمد لله، هاتف والدي فارغ الشحن، سأضعه في مقبس الكهرباء حالًا"، وأغلقت النافذة التي جعلتها توبّخ نفسها كلما مرت بها أو تذكرتها، فهي ليست من البنات اللاتي يُبحْن لأنفسهنَّ الحديث مع هذا أو ذاك، هي مُتحفِّظة جدًّا، وهو الأمر الذي جعله يتمسك بها أكثر وأقسم على أنْ لا يبرح حتى يبلغ.

كان "عمرو" بالفعل قد طلب يدها من شقيقها، لكنه لم يُجِبه وأجَّل الأمر مرة بعد مرة حتى عزَّت عليه نفسه ولم يُكرِّرها.

ذات صباح، تناولت الإشعارات عبر حسابها الشخصي، ما جعلها تعاود النظر إلى الشاشة في كل مرة.

"مرحبًا جنى، أعلم أنك تقرئين رسالتي وأعلم أنَّ طرفكِ طاهر وأعلم أني تجاوزتُ حدودي معكِ، لكن أقسم لكِ أن غرضي شريف وأني طلبت يدكِ من راغب قبل مرضه ولم يُعطِني ردًّا واضحًا، لذا أردت سؤالكِ مباشرة قبل أن أحادث والدكِ".

انتهت الرسالة، قرأتها ولم تُعقِّب! هي لم تُكذِّبه، بالفعل فاتحها شقيقها في الأمر قبل غيبوبته، لكنه أمهلها وأمهل نفسه مدةً لاتخاذ القرار حتى تنتهي اختباراتها.

- المهم رأيكِ أنت.

قالتها شقيقتها "سلوى" حين تبادلتا حديثًا في هذا الأمر.

- لا أعرف.

واحمرَّ خدَّادها، ففهمت السائلةُ إجابةً لم تتلقَّ لها ردًّا.

حدَّقتْ إلى وجهها فبدَتْ في عينيها أجملَ من أي وقتٍ مضى.

(٦)

العودة

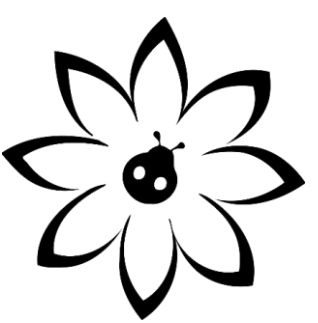

أَفَقْت على أنبوبةٍ مغروسةٍ في ظاهر يَدِي، أَجَلتُ النظر في الغرفة ثم تحسَّستُ رأسي وفركت عيني، دقائق ليست بقليلة مرَّت والصمت يلفُّ المكان، دقائق حاولت أن أُلَملِم فيها ما تبعثر من ذاكرتي وما تناثر من الأحداث ففشلت، نقلتُ طرفها الباكي نحوي بنظرة حسيرة، كانت تُمرِّرُ أناملها فوق صفحة وجهي ببطء.

الصداع الذي طحن رأسي فعاث فيها فسادًا، العطش الذي استقر في حلقي وخلَّفَ مرارةً وغصة، أطنان من الأثقال تحتل جفنيَّ، لست أدري كم مر من الوقت وأنا أحاول إزاحتها ببطء.

"سلوى" التي تقضي معي الوقت محاولة أن تُزيح جبال الحزن من فوق صدري، خرجت من صدرها تنهيدةٌ حارَّة وأمسكت بكفِّي وهي تتلو عليَّ ما حدث في مدة غيبوبتي، كنت أغوص في عينيها أبحث عن إجابة لأسئلتي الكثيرة، ما الذي أَوْصلني إلى هذه الحال؟!

رفعت طَرفي حيث تجلس، أطالت النظرَ نحوي بِحُنُو، كانت دمعةً تُحاوِل عبثًا أن تمنعها أو على الأقل أن تحتفظ بها بَيْن الجفنين، لكنها غدرت بها وغادرتْ مُقلَتَها فترقرقت على الخدِّ حارَّة.

كانت "سلوى" تجلس بجواري تحاول التخفيف من آلامي، وضعتْ كفَّها على جبيني، وبدأت تقرأ المُعَوِّذتين والرُّقية وبعض الآيات القرآنية.

أغمضتُ عيني وأنا أستمع إلى صوتها الذي انساب نحو أُذُني، ليَسري الهدوء والراحة في جسمي. كان صوتها كصوت أُمِّي قادمًا من بعيد، له صدًى ملائكيٌّ عجيب، كأنه باب من الذكرياتِ المفعمةِ بالحنين ظننْتُها قد توارت في طيِّ النسيان، وكانت "سلوى" تُذكِّرني بأمي "راضية".

دُرْتُ بعيني رويدًا رويدًا في المكان الذي كان باردًا، وما يجعلني أشعر ببرودته أكثر أرضيته العارية من كل شيء، وحده كرسي من الجلد يستند إلى حائط رمادي ووراؤه نافذةٌ كبيرةٌ ستائرها باهتة، السرير الذي كان يحملني متصل ببعض الأجهزة التي تحمل شاشات مضيئة ببعض الخطوط المتعرجة وبعض الأرقام، تصدر منها ذبذبات منخفضة بإيقاع منتظم.

جلست "جنى" بجواري، أما والدي فقد وقف بعيدًا بجوار الباب. نظرتُ إليه طويلًا، لقد تغيَّر كثيرًا، نُحوله الزائد وتلك الهالات السوداء التي زادت حول عينيه، وشعره الذي شاب فغَلَب بياضه على سواده، وعلى الرغم من ذلك فما زالت ملامحه كما هي عدا بعض التجاعيد.

أخرجتني "سلوى" من صمتي بعناقٍ حارٍّ مُشتعلٍ بدموع شوقٍ حانية، وسُرعان ما ارتمت "جنى" بين أحضاني، أما أبي فانتظر حتى فرغ الجميع من السلام، حتى "خيري" عانقني وصافحني متمنيًّا لي الشفاء العاجل.

لم يتبقَّ سوى أبي الذي تقدم بخطوات واجفة ولم يستطع كبح دموعه ليحتضنني بمزيجٍ من الشجن والفرح، اعتصرني بين ذراعيه كأنما يريد التأكد من وجودي، سكب مدامعه حتى ارتوَت ثيابي فيما ذكريات الماضي تتراءى في مشهدٍ مفعمٍ بالحب، أما القلوب فكانت مثقلةً بالشوق والحنين.

مرَّ الوقت بين حكايا الماضي وذكريات الطفولة، وتجنبوا الحديث عن قُرَّة أعينهم وبلسم جراحهم "راضية"، الأم الحَنون التي تركت جُرحًا غائرًا في القلوب فربَط الله عليها كي لا تنفلَّت الآلام من عِقالِها. طَمأنوني على "سُلاف" وأنها تنتظر عودتي بفارغ الصبر، فأمسكتُ بيَدِ "سلوى"، أتحسس كفها وأصابعها بحنان بالغ فابتسمت بود، فقلت بصوتٍ خفيض:

- أودُّ أن تُسامحوني جميعًا، لقد كنت أنانيًّا.

وضعت "سلوى" أصابعها على فمي حتى لا أكمِل، لكنني زَفَرت بضيقٍ وجاهدت لأكمِل:

- لم أفكر إلا في نفسي، لم أَرُدَّ الدَّيْن الذي في عُنُقي لكم جميعًا، سامحوني.

وانخرطت في بكاءٍ حارٍّ، لكنني استطردت من بين دموعي:

- لقد عِشت سنوات عمري كلها آخذ فقط ولم أعرف معنى العطاء.

صمت الجميع فلم يَعُد للكلام معنًى بعد ما قيل، وطافت بهم الذكريات واستولت عليهم، لتُغرِقهم في الماضي وتفرض عليهم العودة بالذاكرة إلى الماضي البعيد.

صمت ثقيل وفراش بارد وأجهزة تصدر إشارات ضوئية وصوتًا يشبه أزيز النحل، دخل دكتور "جمال" بقامته المهيبة ترتسم على وجهه علامات التردد، يخطو خطوة ويقف متسمراً في مكانه.

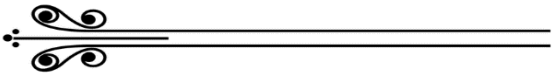

مشهد "راغب" وهو يسقط على الأرض مغشيًّا عليه أمامه لم يفارق مخيلته لحظة واحدة، كأن السواد لف كل شيءٍ حين تلاشى "راغب" في فقاعته بعيدًا عن الوجود.

وجهًا لوجه وجد نفسه أمامه بعد أن أفاق من غيبوبته التي استسلم لها برِضا، وربما بيأس بعد أن فقد كل شيء، أمه وصديق عمره وحبيبته، فترك جسمه لعقارٍ حقن به نفسه في تجربةٍ ربما تكون الأمل الأخير، كطوق نجاة سينتشله من بحرٍ لُجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب.

- راغب.

نظرتُ إليه فأحسست بضياع ملامحه بين جنبات الأسى والأسف، يُحمِّل نفسه مسؤولية ما حدث، ربما بموافقته بعد اعتراضٍ دام لشهورٍ طويلة رضخ بعدها لإلحاحي عليه.

- حمدًا لله على سلامتك يا ولدي.

للمرة الأولى أسمع منه هذه الكلمة "ولدي"، كان صوته يحمل كثيرًا من الارتباك، يخترق أذني بدفء، لأرى عينين دامعتين ويدين مرتعشتين تقدمان ملفًا بارتباك ملحوظ.

تناولته منه والدهشة تغلف كل شيء حولي:

- لم أخُنْ عهدي وقسمي لك يا راغب، فالعهد غال.

***

متأرجحٌ بين الحقيقة والخيال، بين الواقع والهلاوس، بين الاستفاقة والغيبوبة، كان مُعلقًا بخيطٍ رفيعٍ وسائلٍ حقنٍ في وريده يسري في عروقه.

كان يجمع الحكايا ويلضمها كحزمة بخيوط الحنين والأمل، يلقيها في بئر الذاكرة فتعود مُحمَّلةً برائحة الياسمين وزهر الليمون. كان لا بد أن يعود إلى حياته، إلى عالمه، بعد أن ذاق طعم حياة أخرى وعرف عالمًا آخر.

حياته السابقة التي كانت بلا طعم ولا لون لكنها ارتقت به- عزفتْ على أنغام روحه المهزومة لتُحيِي الأمال وتوقظ الأحلام، تستنهض همته وعزيمته.

الوَحشة التي ثقَبَت قلبه وأَفرغَت فؤاده تبدَّدت، هبط من عالمها كمن كان يَرتَع في بستانٍ حافلٍ بالزهور، وتغريدُ الطيور يُهيج قلبه ليمتزج بخرير الماء، فكأنما هي سيمفونيةٌ رائعةٌ من صُنع الخلَّاق العظيم.

حدَّق إلى المكان حولَه وعلى وجهه ترقُّبٌ مُضنٍ وذهول عظيم، في رأسه تركُض مشاهد مُتداخلة، اعترته رعشةٌ خفيفةٌ في حين تُحلّق ذاكرته في فضاءات مختلفة لزمنٍ بعيدٍ مُوغِل في القسوة حدَّ كَوْنِه مُوغلًا في البهجة، كغارقٍ في ضباب النسيان.

بدأ يستعيد حقيقةَ كل شيء، من كان ليُخبره أن الإنسان قد يعيش مرة لكنه يستطيع أن يعيش ألف مرة، وأنه كان مُخطئًا بسلبيَّته ولا مبالاته.

ثمَّة شعور ينمو في القلب رويدًا رويدًا دون أن تدري ليَستَحْوِذ عليك كما تنمو أوراق اللبلاب فتُغطِّي الشجرة كلها عن آخرها، لا تدع فيها مساحةً خاليةً منها، هكذا كانت مشاعره، شيء ما صار يمتلك لُبَّه ويُسيطِر على فؤاده، كان حبها الذي خلقه من جديد، كان يتنفَّسها ويتنفَّس به.

الحبُّ رزق، وهو رُزِقَ حبَّها، حبُّها الذي غيَّره وجعله إنسانًا آخر، جعله يعود إلى ذاتِه القديمة المتوهِّجة، هي التي تراءت له في غيابات أحلامه وغيبوبة مرضه.

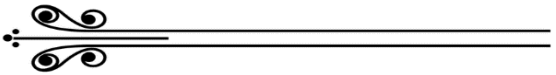

في اليوم التالي دخلت غرفته فتاة جميلة، إنها الطبيبة التي تعالجه، بل هي، هي ورب الكعبة، كرَّرها بينه وبين نفسه مرَّات ومرَّات: "شهد؟! هل هي شهد؟!".

توقف كل نبضٍ فيه حتى أنفاسه، إنها هي، لا تزال رائعةً بهيَّة الطَّلعة، مُشرقة الطلَّة بارعةَ الجمال، استغرقته المفاجأة فلم ينبس بحرفٍ سوى اسمها "شهد".

خطت نحوه بقلب واجف يلازمها إحساس غريب، ابتسمت الطبيبة التي اقتربت برقَّة من سريره، لتغرز سِنًّا مُدبَّبةً في أنبوب المحلول الذي يسرِي بين أَوْرِدته، هزَّت رأسها كأنما قرأت أسئلته لتنتزعه من جموده وتُخرِجه من سُكونِه:

- حمدًا لله على سلامتك يا راغب.

وأضافت بابتسامة نجلى:

- نعم أنا هي، أنا شهد وقد عُدت منذ عدَّة أيام لأجدك غارقًا في غيبوبةٍ طويلة، إنَّها قُدرة الله الذي نجَّاني ونجَّاك من الهلاك، وإن كان أَخذ منا أحمد فَقَد منحنا الصبر والجَلَد ورَبَط على قلبينا.

تذكَّر "أحمد" صاحبه وصديق عمره فأصابته قشعريرة، طالت بينهما لحظات الصمت كأنما يستعيد كلٌّ منهما ذكرياته، حتى قطع صوتها سكون المكان:

- هل ستستمر في أبحاثك أم...

وسكتت. لكنه لم يَرد، فقد كان ذهنه مُشوَّشًا، أضافت:

- هل توصَّلت إلى أمرٍ ما في تجربتك الأخيرة؟

وابتسمت، فأحسَّ بنشوةٍ وهو يتذكَّر تجاربه وأبحاثه وما شاهده في رحلة غيبوبته من عالم النحل والأعاجيب التي لا تخطر على بال بشر، من فرطِ دقَّة وروعةِ هذا الملكوت، فسبحان مدبر الأكوان!

غائبٌ فوق وسادةٍ على فراشٍ أبيض في حجرةٍ باردةِ الجدران عاريةٍ من كل شيء عداه، عاد إلى واقعه بلا رغبة في أي شيء، وحدها تملك مفاتيح عودته ووحدها استطاعت أن تكون معه في غيبوبته وفي عودته إلى واقعه، لكنه كان عازفًا عن كل أمر بعد معاناته وبعد فقْد صديقه "أحمد".

شعرت "شهد" بما يدور في رأسه فتابعت:

- أعلم بانكسارك، ومصابُنا في أحمد جلل، لكن لا بد أن نواصِل حياتنا وأحمد سيكون فخورًا بنا إن نجحنا، فقدْ فقدَ حياته لنعيش.

تمتم راغب:

- رحمة الله عليه.

قالت:

- {فاضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى}، هذه آية الله لنا، أن نكمل المسير ولا نتوقف.

هزَّ رأسه موافقًا وهو يرى بعينيه صمودَها وقوَّتَها وهي الفتاة، الأجدرُ به أن يتماسك هو، ألا يخذُل أهله وأصدقاءه وأحباءه.

أَوَتدرين يا شهد، الأشياء العابرة التي نمر بها، ثمة أشياء أخرى تخترق أرواحنا.

أيبيح له المشهد دور البطل؟! أيستحق أن يعود إلى الواقع كمنتصر؟!

هذه المرأة التي كانت ملحمته في الحياة هي الآن أمامه وجهًا لوجه، قلبًا وقالبًا، ارتجف وترنَّح ثباته لكن اللحظة أكيدة والمغامرةُ لم تنتهِ بعد.

عيناه وتفاصيلها، قلبُه وثباتها، حلمه واتزانها.

كان شديد النُّحول، شديد الإرهاق، عيناه ضائعتان تبحثان عن الحقيقة، استجمع أنفاسه السليبة وقاوَم اليأسَ الذي كاد يتملك منه وقرر المضيَّ قُدُمًا في رسالته العلمية.

***

كجُثةٍ لجنديٍّ في معركة قاتلة أثخنته الجراح، فسقط تدهسه الأقدام، لكنه ما إن يرى طيفها يصلب عوده ويستقيم ظهره فتبرأ جراحه وينسى ما كان به من آلام ويجد نفسه حين يجدها.

أَوَتدرين يا شهد، ثمة مشكلة أننا إن أردنا شيئًا نتصور أننا نحتاج إليه بشِدة، فنبدأ بالبحث عنه ثم محاولة العثور عليه ثم الاستمالة في طلبه، لكنه حين يأتي نكتشف أنه لا يعني أي شيء، مجرد نزوة وربما تكون نزوة عابرة.

الكلمات كانت كصحراء قاحلة، وكانت هي السراب الذي يجري وراءه حتى إذا وصله لم يجده شيئًا، هذه هي الحكاية.

كان يستنهض ذاكرته الحبلى بالذكريات العاجز عن الوقوف عليها والإفصاح عنها، كان متأرجحًا عند أطراف ذاكرته عاجزًا عن المضي أو الاكتفاء بالوقوف، هي التي كانت زيتونية القسمات وحكاياها مليئة بقصص الأسرى وملاحم الشهداء، مواويل الفلاحين وأثواب النساء المطرزة.

ناولَتْهُ فصًّا من برتقالة قشرتها له وهي تقص عليه حكايا والدها عن برتقال غزة، برتقال غزة الواحدة منه جمرة مشتعلة لامعة ورائحته تعبق الأنوف، ملمسه الساحر واستدارته الرائعة وطعمه الذي لا يقاوم.

- يا راغب، برتقال غزة غير!

قالتها وهي تبتسم بعزة وأردفت:

- حكى لنا أبي عن أيام الحرب الأولى مع الاحتلال، وكيف كان الحصار الصهيوني يضيق الخناق عليهم حتى نفد الطعام والشراب وكادوا يموتون جوعًا. وذات صباح مشرق بسَّام، ألقى البحر بأسماكه على الشاطئ ليأكل أهل غزة المحاصرون الجائعون حتى يشبعوا، كرامةً من الله مولاهم والكافرون لا مولى لهم.

قد تكون القوة التي تربطهما الآن أقوى من أي شيء حتى وإن كان الحب، نعم أقوى من الحب، الأمرُ يتعلق بالوفاء لـ"أحمد" ولعائلته وقضيته وذكراه التي أرادَا أن تُخلَّد. كان رباطًا بينهما لا يعرف كلمات الحب والغزل، كالجنود في معركة واحدة، كفارسٍ خَرَج إلى حربٍ مقاتلًا بسيف الحقّ فإما النصر وإما الشهادة.

أخرج حاسوبه وبدأ يُراجع أبحاثه العلمية وآخر ما توصَّل إليه، ثم راجع التقارير العلمية الأخيرة التي سُجِّلت حول الاستشفاء بسُمّ النحل، وجد دراسةً علميةً مُشابهةً كثيرًا لما أجراهُ من تجارب معملية، وهي تجربة أجراها عالِمٌ هنديٌّ وتوصَّل فيها إلى نتائج مذهلة، إذ استطاع من خلال سُمّ النحلِ تنشيطَ الخلايا العصبية الموجودة في الدماغ وإرسال إشارات حسّية تنتقل إلى الخلايا الموجودة أسفل الدماغ، وأنه يزيد عدد كريات الدم الحمراء وينشّطُ الدورة الدموية، مما يساعد على زيادة النشاط وحيوية الجسم، وهو ما توصَّل إليه "راغب" من خلال تجاربه.

ابتهج "راغب"، فهذا كله دعمٌ لما توصَّل إليه من أبحاث وتجارب، بل إنه قد سبقها بمراحل فبحثه مكوَّنٌ من شقَّين: شقٌّ حول تجارب أُجرِيَت على بعض المرضى ودراسة نتائج الفحص والمتابعة، وشقٌّ حول الاستفادة بهذه الأبحاث في تطوير العلاجات الطبية والتراكيب الدوائية. (٣٢)

---

(٣٢) منح الله سبحانه وتعالى الكائنات الحية المختلفة القدرةَ على الدفاع عن نفسها وحماية نفسها من المخاطر، ومن الأمثلة على ذلك النحل، الذي يعمل على الدفاع عن نفسه ضدَّ من يحاول إيذاءه أو الاقتراب من مملكته عن طريق اللسع، إذ يغرس الجزء السفلي من جسمه في جلد من يحاول إيذاءه، ويكون الجزء السفلي ذا رأسٍ مدببٍ شبيه إلى حدٍّ كبير بالإبرة، ويكون متصلًا بمادة سامة موجودة في بطن النحل. وقد أجرى العلماء دراسةً على مادة سُمِّ النحل، وقد اتضح أنها تحتوي على مواد بروتينية وأحماض، بالإضافة إلى مجموعة من الإنزيمات والتي من أهمها: الهيسيتامين، الفوسفوليبيز، الدوبامين والميليتين، وتساهم هذه المركبات المعقدة في الحفاظ على صحة الإنسان وتخليصه من الأمراض.

وسُمُّ النحل يحمل قيمة علاجية في علاج أمراض خطيرة، وهو بديل قابل للتطبيق بدلًا عن الأدوية الصيدلانية، فعلاج النحل هو العلاج الشعبي التقليدي الذي استُخدِم في عديد من البلدان لعدة قرون، ويستفيد من قوة الشفاء الواردة في نحل العسل السُّمُّ الذي يساعد على التخفيف من ظروف خطيرة، مثل مرض التصلُّب المتعدد، التهاب المفاصل مرض الذئبة.

<u>فوائد العلاج بسُمِّ النحل:</u>

- يُستَخدَم أيضًا من قِبَل النساء الحوامل اللواتي يُعانين من الإجهاض المتكرر بهدف تثبيت الجنين وحمايته، ويستخدم هذا السُّمُّ في علاج تضخُّم الغدة الدرقية، إذ إنه يعمل على تنظيم كمية الهرمونات التي تفرزها الغدة الدرقية ضمن المعدل الطبيعي لإفرازها، ويعمل سُمُّ النحل على حماية جسم الإنسان من الأورام السرطانية، بخاصة تلك التي تصيب الجهاز الهضمي، ويساهم في تخليص الإنسان من الشحنات الكهربائية الزائدة التي قد توجد في المخ، ويساهم سُمُّ النحل في زيادة كمية المضادات الحيوية التي ينتجها الجسم وبالتالي حمايته من الالتهابات، ويعمل على حماية الإنسان من الإصابة ببعض الأمراض، التي من أهمها الحُمَّى الروماتيزمية، وكذلك يعمل على تحسين الحالة النفسية للإنسان.
- يساهم سُمُّ النحل في علاج الأمراض الجلدية التي تصيب الإنسان، ومن أمثلتها: الدمامل والصدفية والدوالي.
- يدخل سُمُّ النحل في علاج بعض الأمراض التي قد تصيب الأعين، ومن أهمها: التهاب القزحية والتهاب الجسم المهدب للعين.
- ويستخدم أيضًا في علاج عرق النسا.
- إن سُمَّ النحل له مفعول في علاج بعض أمراض الجهاز التنفسي كالربو والحساسية، بالإضافة إلى أمراض الجيوب الأنفية.
- يساهم هذا السُّمُّ في تقوية الأجسام وعلاج الآلام التي تحدث نتيجة حمل الأدوات الثقيلة ورفعها.
- يدخل سُمُّ النحل في علاج مرض النقرس، بالإضافة إلى أمراض سيولة الدم.
- يساهم أيضًا في معالجة التبول اللا إرادي عند الأطفال وتخليصهم من هذه المشكلة، ومن المعروف أن مرض الملاريا يحدُث نتيجة لسع نوعٍ من البعوض للجلد، فيستخدم سُمُّ النحل في علاج هذا المرض.
- يستخدم من قِبَل النساء الحوامل لعلاج تسمُّم الحمل، أي ارتفاع ضغط الدم في أثناء الحمل.

[المصدر: من موسوعات علمية ودراسات عن عالم النحل].

كأبطال الروايات يحتلون رأس الكاتب فيجعلونه يفكر فيهم ليل نهار، أما ذاك البطل الذي يسكن جسمه فيخترق الكاتب ليعيش فيه، يكتب عنه كل همسة وكل لمسة، لذلك يتعلق به القراء، بل يحبونه ويدافعون عنه، يبررون له تصرفاته الحمقاء، يشعرون بآلامه ويفرحون لانتصاراته وإن كانت صغيرة، يرون فيه ذواتهم، أنفسهم، حكاياهم التي لم يكتبوها وقصصهم التي يعيشونها، تلك الحكايا اليتيمة التي لا كاتب لها ولا قارئ، فما لا نكتبه يعيشه الآخرون.

***

- لقد انتبه!

صرخ بها "عمرو" في كل مكان، في الجامعة وفي مركز الأبحاث وفي البيت، وأخيرًا دسَّها في أذن والدة "أحمد" التي كانت دائمةَ السؤال عنه في مدة غيبوبته.

- أهلًا يا خالتي أم أحمد.

قالتها "سلوى" وهي ترحب بها في ردهة المشفى.

- لقد جئت لأطمئن عليه.

وارتمت على أريكة معدنية وهي تسحب الهواء إلى جوفها بعد أن عزَّ عليها جمعُه.

- جزاكِ الله خيرًا يا خالة، هذا واجب علينا.

مَسحَتْ وجهها بكلتا يديها وهي تبتسم لمحدثتها بعد أن جاورتها في مجلسها.

- لقد كان راغب يرعانا بعد رحيل أحمد خير رعاية، لم يبخَلْ علينا بمالٍ أو وقتٍ أو جهد، ومهما فعلتُ فلن أوفيه حقَّه.

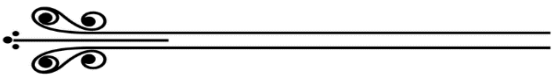

ردت "سلوى" متعجبة:

- حقًّا؟! لم يخبرنا أبدًا بذلك!

- يا بُنيَّتي، راغب يحمل في جوفه قلبًا يسع الكون كله.

مسحت "سلوى" دمعةً سبحتْ على خدها، لكنَّ عينيها كانتا تمتلئان بالفخر.

سم النحل

"سائل عديم اللون مُكوَّن من البروتينات والإنزيمات والأحماض الأمينية، قابلٌ للذوبان وله تأثيرٌ شِفائيٌّ على بعض الأمراض، وهو إحدى المواد البيولوجية ذات اللون الأبيض الشفاف، وينتج عن طريق غُدَد السُّمِّ الموجودة في النحل، له رائحةٌ قويةٌ وطعمٌ مرٌّ وتأثيرٌ حِمضيّ.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)﴾ سورة النحل.

وهذه دعوة صريحة من الحق تبارك وتعالى إلى أن نتفكَّر ونتأمَّل في عالم تلك الحشرات المباركة، التي نَحَلَها الله القدرةَ على جمع رحيق الأزهار وهضمه وتحويله إلى شراب مختلف الألوان، فيه شفاء للناس، ذلك العالم الواسع المليء بالأسرار والآيات التي تنطق بالإيمان وتشهد بالوحدانية لله الواحد القهار".

كانت هذه مُقدّمة رسالة الدكتوراه الخاصَّة به، التي عرَّج فيها على تجربته الخاصة مع لسعةِ النحل التي أصابته بالحُمَّى ودخل على إثرها في غيبوبة طويلة.

وفي أثناء مناقشة رسالة الدكتوراه، قدَّم كلمة مُقتضبَة:

"بدايةً وقبل كل شيء، كنت أودُّ أن يحضر اليوم اثنان فقدتهما في خلال رحلتي، أمي التي من دونها ما كنت لأقف هنا أبدًا، فهي من ربَّتني وعلَّمتني، وصديق عمري وشقيق روحي "أحمد" الذي ضحَّى بحياته حتى نعيش في سلام".

للحكايا قُدسِيَّة أكبر من أن نكتبها، وللقلوب هيبة أكبر من أن نجرحها، فنحن الذين نحفظ للقلوب قدسيتها وللحكايا هيبتها، ولا يعرف المرَّ إلا من ذاق غصته.

حين انتبهنا على قارعة الحلم كنا صغارًا نحتمي بأمومتها، ضعفاء نحتاج إلى قوتها، إنها أوطاننا.

مد "راغب" بصره فإذا الصفُّ الأول كله يضجُّ بالبكاء، كان والده يجلس وبجواره "خيري" ثم "سلوى"، وتجلس بجانبهم "جنى" وبجوارها "عمرو" وقد تمت خطبتهما ويستعدان للزفاف.

أما "شهد" فكانت تجلس على الطرف الآخر من الصف نفسه، ودارت في رأسها ألف فكرة وفي خاطرها ألف ألف خاطرة، كانت تَحنُّ إلى وطنِها الذي تعشقه وتأبى ذاكرتها أن تنساه في لوعةِ الحلم الهارب من الأعين والكواهل التي حملت القضية جيلًا بعد جيل، مُثقَلة بالحزن على بلدٍ يَنوح على خطيئة لم يرتكبها ويدفع الثمن غاليًا، وذاكرة الوطن لا تنسى أبدًا، فالجراحُ لا تبرأ مهما مرَّ الزمنُ حتى نغرق بالأوجاع ونُدمِن الحزنَ ونصيرَ أمَّة الأسى، تذكَّرَتِ السهول الخضراء الممتدة في البلاد، البلاد التي كانت آمنةً مطمئنَّةً حتى أغارت عليها رياحُ المطامع التي لا تنتهي.

***

اللحظة أداةٌ من أدوات الزمن، وتلك اللحظة كانت أهم لحظة في حياته، فقد تبدَّل، تغيَّر، فَقَد، فاز وخسر، لكنه في النهاية عاد أقوى وأنضج، غيَّر مساره وبدأ من جديدٍ مُصحِّحًا أخطاءَ الماضي التي وقع فيها حين كان أنانيًّا نرجسيًّا.

الشمسُ التي أنارت الكون صباحًا تُخبرُ الجميع أن الماضي رَحَل مع المساء، وأن الأيام لا تتشابه، والنهارات تختلف، ففي كل يومٍ تتبدل الأحوالُ وتتغير الأفعال، حتى مساحاتِ الفرح والحزن قد تغلبُ واحدةٌ منهما على الأخرى، وجمَعَتْهُما مَهمَّة جديدة لفصلٍ في الحياة تَشكَّل مع أحداث سوريا.

سوريا الوجعُ النابضُ في القلوب، ومخيَّمات تعجُّ باللاجئين في حياة خلَّفتها الحرب وراء ظهرها ولم تُلقِ لها بالًا، فَرُّوا من الموت يبحثون عن فَسحةِ نورٍ وأملٍ في الحياة، أيِّ حياة، حتى وإن كانت في مخيمات شَحيحة الإمكانيات.

جاءوا من مناطق مختلفة من سوريا، من الريف والوادي، من البَوَادي والحَضَر، من السَّهل ومن الجَبَل، الأعين فَزِعة تحملُ رهبةً عميقة ربما مما شاهدت وما قاست، لا يعرف حجم المأساة إلا من عايَشَها.

صرخاتهم الموجوعة حين يهبُّون من مناماتهم فزعًا على دويِّ الانفجارات والطائرات في سماءِ بلدٍ يُباد شعبه، الصواريخ تضرب كل شبرٍ وصوت الرصاص يكاد يصمُّ الآذان، الجثث في كل مكان ولا مكان آمن في الحرب، الحرب التي لا منطق لها ولا قانون، الخِيَام تمتد في خطوط كثيرة طولية وعرضية على مسافاتٍ متباعدة، تقرأُ في أعينهم جملةً واحدةً مُكرَّرة ومُقرَّرة "متى تنتهي الحرب؟!".

كل ما يريدونه هو العودة إلى ديارِهم وإن كانت مهدَّمة! أليْست الطيور تهتدي إلى موطنها ولو في الظلام؟!

تحملُ وجوههم كل معاني البؤس، أعين غائمة وأبصارٌ شاردة، شفاهٌ يابسةٌ وجلودٌ مُشقَّقة، ثيابٌ مُمزَّقة ونفوسٌ مكسورةٌ تنهَشُها أصابع الذل.

النهار كان يتباهى بشمسه المُشرِقة حتى يأتي المساء فيُكشِّر عن أنيابه بظُلمةٍ قاسية وظلام عظيم، وبينهما الطريق الخالد طريق الحقِّ ونُصرَة المظلوم.

بعد صباحاتٍ ومساءاتٍ عديدة، انتظمت حياتهم على مساعدات طبية في كل مكان احتاج إلى مساعدة، أماكن النِّزاع والحروب، تجمُّعات اللاجئين ومخيَّمات النازحين، فتلك المنعطفات التي مرَّت بحياته حوَّلته إلى إنسانٍ آخر يُقدِّر معنى الحياة ويحترم الإنسان والإنسانية.

***

الممرات الطويلة تعجُّ بعشرات الأشخاص الذين أرادوا المراجعة بانتظار دَوْرهم في العرض على الطبيب في مشفى ميداني للهلال الأحمر.

كان دكتور "راغب" يحاول المساعدة، لَمَح امرأةً في أواخر العَقد الثالث تفترش الأرض وفي حجرها طفلةٌ رضيعةٌ تُحاوِل هَدهَدَتها، والصغيرة تبكي بكاءً لا يتوقف.

سألها:

- كم عمرها؟

- سبعة أشهر.

- لم لا تُرضِعينَها؟

أجابت بألم:

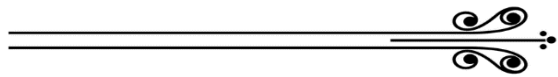

- ثَدْيِي ليس فيه حليب، لقد جفَّ وليس معي أيُّ نقودٍ لشراء حليب صناعي.

كان يحادِثُها محاولًا التخفيف عنها رَيْثما يفحص الرضيعة.

كان متعاطفًا معهم متفهِّمًا حالهم، ويعتقد أن مجرد الحديث معهم يُخفِّف من أوجاعهم.

- هل زوجكِ معكِ هنا؟

بكت وهي تجاوبه:

- ليس معي، هو مع ربه، تركَنا نُواجه الحياة بجبروت الحرب وقسوة الموت، نخوضُ المستحيل، ونعبر حواجزَ العذاب، الصواريخ والدمار في كل مكان، قُرًى تُباد بغازٍ سام، لقد شِبنا قبل الأوان وأحاطت بنا جيوش اليأس كما أحاطت بنا عصابات بشَّار.

السكون الذي خيَّم على كل شيء بعد كلماتها، ندَّت منه آهة مكتومة وهو يتابع عمله. كان معه "شهد" و"عمرو" في بعثة "منظمة الصحة العالمية" نفسها، كانوا كطيور مُهاجِرة ماهرة في التحليق بعيدًا، يُقدِّمون الخدمات الطبية ويُسعِفون الجرحى والمُصابين، ليكونوا شهودًا على زمن الفجيعة.

***

هو الذي تعلَّق بوَشائِجها حتى فاض حبًّا وتَحنانًا، لم يلتفت إلى حيث نداءٍ عابرٍ مرَّ سريعًا كأن لم يكن، لكن ارتعش ذلك الخيط الذي ربط بين القَلبَين في لحظة وِصال، فتلك الحكايا تُجبرك على أن تخلع قلبكَ فتُلقِيه بعيدًا، وتخلع عقلك ولا تستخدمه أبدًا.

أعوام مرَّت ومرَّ معها كثيرٌ من الأحداث، في الطائرة التي تُقلّهم مع فَوْجٍ طبيٍّ إلى إحدى بِقاع النِّزاعات الدموية المسلحة ضمن بعثة الأمم المتحدة للمساعدات الطبية،

تقدَّمت المُضيفة تحمل بعض المشروبات وتعرضها عليهم في أدب، تناول "راغب" شرابًا مُنكَّها بالعسل، فيما ابتسم "عمرو" يُمازحه وهو يتناول عصيرًا بالشوكولاتة.

- عسل مرة أخرى يا صديقي!

اختارت "شهد " اختيار "راغب" نفسه بنكهة العسل نفسها، زفر "راغب" وهو يُرجع رأسه إلى الوراء مستندًا إلى كرسِيه، أراد أن يتخلى عن كبريائه التي تجعله يتظاهر بالثبات، في حين أن في داخله انقلاب قوَّض أركانه.

نظَر إليه "عمرو" بثبات وهو يسترجع ما حدث ليلة استشهاد "أحمد"، وقد صرخ "راغب" وقتها: "ليتني أخبرته قبل أن يموت!".

هو يذكر لكنه لم يسأله من قبل، كان يخشى، يخشى صوتَه، تنهُّدَه، دموعًا ينزفها صراخُه، هو يذكر لكنه يريد أن ينسى مهما تفرقت السبل أو انفرط عَقد التواصل، لكنه هذه المرة تجرأ وسأل.

بهدوء كان رد "راغب":

- لقد متُّ من قبل، متُّ تمامًا أصدقكم القول، لقد رأيتهم يغسلونني ويكفنونني، رأيتهم وهم ينزعون عني ثيابي ويطبعون القبلات على خدي، رأيتهم يبكون في وداعي، يحملون نعشي ويسيرون بي إلى المقبرة، كنت فقط أود أن أعود إلى الحياة لحظة واحدة أخبرهم فيها أنني أحبهم، سأطلب منهم أن يدفنوني بجوار قبر أحمد حتى أخبره، لكنهم لم يسمعوني ووضعوني في قبر بعيد وأهالوا عليَّ التراب ورحلوا. القبور خُلِقَت للدفن، نضع فيها أجسادًا فارقتها الحياة، تنتظر حسابًا وصراطًا، فإذا دُفِنَت حرامٌ نبشها، تُترَك بأسرارها وبأوزارها وبكل خطاياها وخطيئاتها، وأنا كنت جثة يفصلني عن أحمد موت وقبر، ولكني انتبهت فحدثت نفسي لعلِّي لم أمُت ولكن هذا ما أردت. كانت نظراته تحمل

غصةً كلها موت، تسللت الشفقة إلى قلوبهم رغم عدم استيعابهم، فالعزلة قد تكون باختيارنا نوع من البعد والانطواء.

أرخى رأسه على المقعد وتابع:

- أَودُّ الاعتراف بِسرٍّ خبأته سنوات طويلة.

ابتسم "عمرو" ساخرًا:

- هل تظن أننا سنموت في هذه الرحلة؟

انطبع على وجهه الرضا ليجيب:

- الموت حقٌّ وهو قدَر لا مفر منه.

بحة صوته حملت حزنَ سنوات، التقطت "شهد" طرف الحديث وسألته بجدية:

- قل ما أردت إخبارنا به يا راغب، تكلم كُلنا آذان مُصغِيَة.

- لا بأس، سأتحدث ولا بد أن أعترف، أَتَدْرون تلك الحمى التي أصابتني والغيبوبة التي اجتاحتني مدة من الزمن، حتى ظننتم أنها من لَسْع النحل؟ لم يكن هذا هو السبب الحقيقي.

فَغَر "عمرو" فاهَهُ واتَّسعت حدقتا "شهد" وهما يتابعان كلماته، كأن على رأسيهما الطير.

- لقد حَقَنْتُ نفسي بعَقارٍ كنت أحاول تصنيعه من سُمّ النحل لأرى تأثيره على بعض الأماكن العصبية والخلايا الجذعية، لمعالجة بعض الأمراض المزمنة ومنها مرض سُلاف.

حملت نظراتهما مزيدًا من الأسف والإشفاق وتلهف إلى معرفة القصة كاملة، نظر إليهما فشعر بضياع ملامحهما قلقًا وخوفًا مما سيسمعانه منه، تنهَّد بحرقة واستطرد:

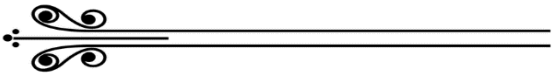

- لكن يبدو أن الجرعة لم تكن مضبوطة، فأصابتني بارتفاع في الحرارة وحَدَث ما حَدَث.

صمتٌ ثقيلٌ لفَّ ثَلاثَتُهم حتى ظنُّوا أن الكون كله سَكَن، لكن هَدير نبضه كان يتسارع ليُكمِل بحماسة:

- كنتُ أعلم رأيَ الجميع في شخصيتي وسلوكي، أناني، جامد، غير مُبالٍ بأحد وربما نرجسي، لكنني في الحقيقة كنت أريد تغيير الواقع حولي ولم أستطع.

دار بعينيه في سقف الطائرة ثم أخرج نفسًا عميقًا وهو يُطأطئ رأسه إلى الأرض خِزيًا:

- كنت أريد الاشتراك في المظاهرات والفعاليات السياسية ولكني كنت على يقين أن الحل هناك في تحرير الأقصى ثم تحرير الشعوب، كنت أريد أن أعرِض سُلاف على الأطباء وأبحث عن مراكز تأهيلية مناسبة لها، ولكني كنت أعلم أن مرضها لا علاج له، وأن الحلَّ مُعجزةٌ علمية، حاولت تحقيقها وسَعَيْت بقوة من أجلها، لم أكن نرجسيًّا ولكني كنت واقعيًّا. هذا ما أردت أن أخبر به أحمد، لكن قضاء الله كان قد سبق فقررتُ أن أطوي ما في داخلي وأجلس عليه بكل ثقلي. حين طُعِن أحمد كانت الطعنة في قلبي أنا، كنت أرتجف، أخاف أن يرحل ويتركني، لم يلوح لي بيده قبل أن يغادر، ابتعد وترك جرحه ينزف في أحشائي. ركضت وصرخت لكنه لم يلتفت، فرُحْتُ أسدُّ بيدي ثقبَ قلبه وأضغط على صدره، لكن الدم تحول إلى شلالٍ قذفني بعيدًا عنه، لتغادر روحي جسمي قبل أن تغادر روحه. رأيتُني أحمل أحمد بين يدي، فهناك لحظة يجب أن تتوقف فيها عن الهرب، أن تلتقط أنفاسك، لكن بيني وبين أحمد كان قبر وغربة.

حكَّ "عمرو" جبهته ثم ربت على كتف صديقه:

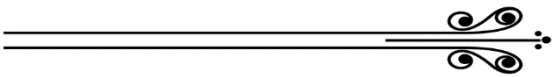

- يا ألله! أَكُنتَ تحمل كل هذا في صدرك؟!

- وبعد موت أحمد أظلمت الدنيا في عيني، ورأيت كل الدروب مغلقةً ولا فائدة من أيِّ شيء، فانطويت مرة أخرى على نفسي وانعزلت عن العالم.

أومأت "شهد" برأسها وقد التمع في عينيها بريق كان يتزايد في المدة الأخيرة كلما اقتربت منه وعرفت شخصيته، حتى أصبح البريق وهجًا يحمل ألف معنى:

- أكرمك المولى في الدارين يا راغب، وأسعدك الله كما أسعدت قلوبنا جميعًا.

تدحرجت العبرات على وجنتيها، كان "راغب"متأثرًا بشدة وهو يقول في صمت:

- حين استقر السائل داخل دمائي وبدأ تأثيره في الانتشار، لم أفكر في نفسي مطلقًا، كل ما فكرت فيه سُلاف ومن هم مثلها ويعانون تلك الأمراض المزمنة.

الحقيقة التي أَعلَنت عن نفسها فأشعلت الأرض من تحتهم نارًا، وفاضت السماء من فوقهم أنهارًا، كغارقٍ في يمٍّ يغشاه مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوقه سحاب، فأدرك بين يديها شاطئه وبين عينيها جزيرة أمانه.

ومع أول نسمة هواءٍ سَرَت بينهما حين هبطت الطائرة، نَسِيَ ما كان به من ألم ونَسِيَ ما ألَمَّ به.

***

حدَّث نفسه:

وهل كان يحق لي أن أقترب؟ أن أعترف؟

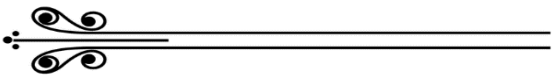

لا، كان لا بد أن أصمت، أن أتلاشى، كان لا بد أن أكون بعيدًا كالجبال حتى لا يراني أحد، أن أكون عميقًا كي لا يمسك بي أحد، كنت أتوارى من كل شيء، أهلي، أصدقائي، جيراني وحتى نفسي، أحيانًا كنت أذوب حتى لا تعرفني.

لقد لفظني الحلم وتداخل في واقعي وتساءلت: أين أنا؟ ثم انتبهت أنني كنت أختبئ داخله.

حائط المَبْكَى

ذاك الركن القصيُّ هو حائطه، بل حائط مَبْكاه.

الجدران تتراص عليها لوحات فنية رائعة، فإن كانت جلسات التخاطب وتعديل السلوك والتعلم المرِن آتت أُكُلَها مع "سُلاف"، فإنها طوَّرت من شخصيتها وثقافتها، فأصبح لريشتها ثِقَلٌ فني وفكري، والبشائر تتوالى من معارض أقامَها للوحاتها الفنية.

الجدار الذي يقف أمامه قابعٌ في وجدانه، فلقد احتفظ لنفسه بتلك اللوحة، صورة أمه "راضية" وهي تحتضن "سُلاف" وتجلس بين ابنتيها "سلوى" و"جنى"، ويقف أبوهم خلفهم واضعًا راحته على كتفها وفي الزاوية المظلمة يقف "راغب" وحيدًا شاردًا بائسًا.

في هذه البقعة الصغيرة اجتمعت ذكرياته وخلاصة مآسيه.

المعرض الذي ضمَّ لوحاتٍ فنيةٍ رائعة لـ"سُلاف" كان حصادًا لذكريات متوهجة رسمتها أناملها بإبداع لا مثيل له، ريشتها المتوهجة بالحياة، الملامح الدافئة والخطوط الملونة بلون الدم وحكايا الشهداء، صرخات الأسرى وأنين المستبعدين، طيبة أمها وبياض جِفرها وهي تطوي سجادة صلاتها، كل الحكايا التي شاهدتها أو رُوِيَت لها أو عَرَفتها ولم تستطع المشاركة فيها، لكنها جسَّمَتها بحرفية عالية.

تبسَّم بمرارة كانت تملأ ذكرياته لتنسكب في لوحات "سُلاف".

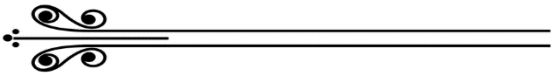

أما هو فقد وجد نفسه هو ذاك الجندي الذي لم يُولِّي دبره على الجبهة ولم يتولَّ يوم الزحف ولم يرحل عن أرض المعركة حتى النهاية، بقي صامدًا إذ كان الجنديَّ الوحيدَ في المعركة مُحارِبًا دون سلاح.

لَمَلَم أشلاءه وسعى إلى راحة البال ولو بثِقَل الأحمال، ووَجَد جبر الخاطر بعد عذابات المخاطر.

تمت بحمد الله
حنان الشيمي
٢٠٢٠